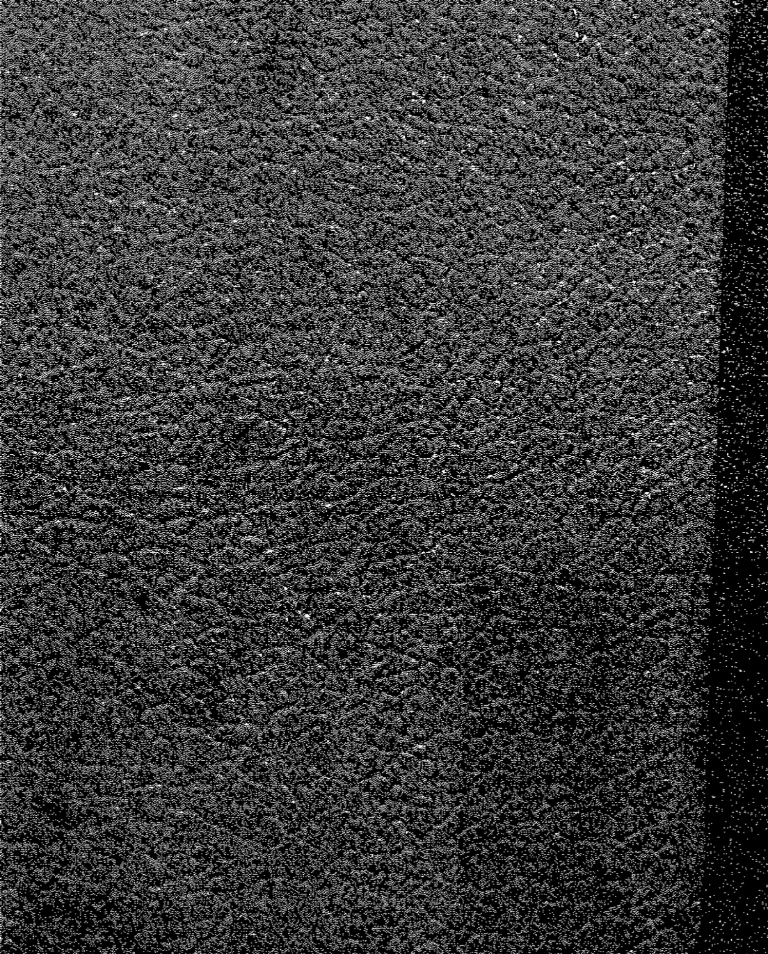


قنديل أمّ هاشم

يحيى حقي

قنديل أمّ هاشم

اقرأ



« قنديل أم هاشم »

١

كان جدى الشيخ رجب عبد الله إذا قدم القاهرة وهو صبى مع رجال الأسرة ونسائها للتبرك بزيارة أهل البيت ، دفعه أبوه إذا أشرفوا على مدخل مسجد السيدة زينب — وغريزة التقليد تغنى عن الدفع — فيهوى معهم على عتبته الرخامية يرشقها بقبلاته ، وأقدام الداخلين والخارجين تكاد تصدم رأسه . وإذا شاهد فعلتهم أحد رجال الدين المتعالمين أشاح بوجهه ناقماً على الزمن ، مستعيذاً بالله من البدع والشرك والجهالة ، أما أغلبية الشعب فتبسم لسذاجة هؤلاء القرويين — ورائحة اللبن والطين والحلبة تفوح من ثيابهم — وتفهم ما فى قلوبهم من حرارة الشوق والتبجيل ، لا يجدون وسيلة للتعبير عن عواطفهم إلا ما يفعلون : والأعمال بالنيات . وهاجر جدى — وهو شاب — إلى القاهرة سعياً للرزق ، فلا عجب إن اختار لإقامته أقرب

المساكن بالجامعه المحبب . وهكذا استقر بمنزل للأوقاف قديم ، يواجه ميضأة المسجد الخلفية ، فى الحارة التى كانت تسمَّى (حارة الميضة). « كانت » ، لأن معول مصلحة التنظيم الهدام أتى عليها فيما أتى عليه من معالم القاهرة . طاش المعول وسلمت للميدان روحه ، إنما يوفّق فى المحو والإفناء حين تكون ضحاياه من حجارة وطوب ! ثم فتح جدى متجراً للغلال فى الميدان أيضاً . وهكذا عاشت الأسرة فى ركاب «الست» وفى حماها : أعياد «الست» أعيادنا ، ومواسمها مواسمنا ، ومؤذن المسجد ساعتنا .

اتسع المتجر وبورك لجدى فيه – وهذا من كرامات أم هاشم – فما كاد يرى ابنه الأكبر يتم دراسته فى الكتاب حتى جذبه إلى تجارته ليستعين به ، ، وأما ابنه الثانى فقد دخل الأزهر ، واضطرب فيه سنوات وأخفق ، ثم عاد لبلدتنا ليكون فقيهها ومأذونها . بقى الابن الأصغر – عمى إسماعيل – آخر العنقود ، يهيئه القدر واتساع رزق أبيه لمستقبل أبهى وأعطر . لعله خشى فى مبدإ الأمر ، عندما أجبره أبوه على حفظ القرآن ، أن يدفع به إلى الأزهر ، لأنه يرى صبية الميدان تلاحق الفتية المعممين بهذا الهتاف البذىء :

ـــ شد العمة شد ، تحت العمة قرد . . . . . .

ولكن الشيخ رجب سلمه ، بقلب مفعم بالآمال ، إلى المدارس الأميرية ، وعندئذ أعانته تربيته الدينية وأصله القروى ، فسرعان ما امتاز بالأدب والاتزان وتوقير معلميه ، مع حشمة وكبير صبر . إن حرم التأنق لم تفته النظافة . وهو فوق ذلك أكثر رجولة وأقوم لساناً وأفصح نطقاً من زملائه (المدلعين) أولاد الأفندية المبتلين بالعجمة وعجز البيان . فما لبث أن بذ الأقران ، وتلألأت على سيمائه نجابة لا تخطئها العين ، فتعلقت به آمال أسرته .

أصبح ، وهو لم يزل صبياً ، لا ينادى إلا بـ (سى إسماعيل) أو إسماعيل أفندى ، ولا يعامل إلا معاملة الرجال . له أطيب ما فى الطعام والفاكهة .

إذا جلس للمذاكرة خفت صوت الأب ، وهو يتلو أوراده ، إلى همس يكاد يكون ذوب حنان مرتعش ، ومشت الأم على أطراف أصابعها ، وحتى فاطمة النبوية ـــ بنت عمه ، اليتيمة أباً وأماً ـــ تعلمت كيف تكف عن ثرثرتها وتسكن أمامه فى جلستها صامتة كأنها أمة وهو سيدها . تعودت أن تسهر

معه كأن الدرس درسها ، تتطلع إليه بعينيها المريضتين المحمرتى الأجفان ، وأصابعها تعمل فى حركة متصلة لا تنقطع فى بعض أشغال (التريكو) . من ذا الذى يقول لإسماعيل : تنبه إلى هاتين اليدين كيف دبت فيهما خلسة حياة غريبة ، وحساسية يقظة ، ولمس متعرف ؟ ألا تفهم ؟ ألا تفطن إلى أن دليل اقتراب عاهة العمى فى السليم هو أن تبدأ يده فى الإبصار ؟

ــ قومى نامى يا فاطمة .

ــ لسه بدرى ما جاليش نوم .

بين حين وآخر تحيل دمعة مترقرقة شخصه إلى شبح مبهم ، فتمسحها بطرف كمها وتعود إلى تطلعها . الحكمة عندها تتمثل فى كلامه إذا نطق .

يا لله ! كيف تحوى الكتب كل هذه الأسرار والألغاز ؟ وكيف يقوى اللسان على الرطانة بلغة الأعاجم ؟ وكلما كبر فى نظرها انكمشت أمامه وتضاءلت . قد يعلق بصره بضفيرتيها فيتريث ويبتسم. هؤلاء الفتيات ! لو يعلمن كم هى فارغة رؤوسهن ! ! إذا أوى إلى فراشه فعندئذ ، وعندئذ حسب ، تشعر الأسرة

أن يومها قد انقضى ، وتبدأ تفكر فيما يلزمه فى الغد . كل حياتها وحركاتها وقف على توفير راحته . جيل يفنى نفسه لينشأ فرد واحد من ذريته . محبة وصلت من قوتها إلى عنفوان الغريزة الحيوانية . الدجاجة القلقة ذات النظرة المتجسسة الحذرة ترقد على بيضها مشلولة الحركة ذليلة العين ، كأنها راهبة تصلى . . . هل هى هبات من فيض كرم ؟ أم جزية جبار مستبد ، إرادته حديد، له فى كل عنق طوق ، وفى كل ساق قيد ؟ تعلق هذه الأسرة بولدها ، تعلق مسلوب الحرية والإرادة ! فأين بربك جماله ؟ جواب هذا السؤال عند قلبى . فما من مرة تمثّلت فيها هذه الأيام البعيدة إلا وجدته يخفق بذكراها ، ويبدو لى وجه جدى الشيخ رجب وحواليه هالة من وضاءة ونور . أما جدتى — الست عديلة ، بسذاجتها وطيبتها ، فمن السخف أن يقال إنها من البشر ، وإلا فكيف إذاً تكون الملائكة ! ما أبشع الدنيا وأبغضها لو خلت من مثل تسليمها وإيمانها .

٢

سنة بعد سنة وإسماعيل يفوز بالأولية ، فإذا أعلنت النتيجة

دارت أكواب الشربات على الجيران ، بل ربما شاركتهم المارة أيضاً ، وزغردت (ماشالله) بائعة الطعمية والبصارة ، وفاز الأسطى حسن ــ الحلاق ودكتور الحى ــ بحلوانه المعلوم ، وأطلقت الست عديلة بخورها وقامت بوفاء نذرها لأم هاشم . فهذه الأرغفة تعد وتملأ بالفول النابت وتخرج بها أم محمد تحملها فى مقطف على رأسها : ما تهل فى الميدان حتى تختطف الأرغفة ، ويختفى المقطف ، وتطير ملاءتها ، وترجع خجلة تتعثر فى أذيالها غاضبة ضاحكة من جشع شحاذى السيدة ، وتصير حادثتها فكاهة الأسرة بضعة أيام يتندرون بها .

وكذلك نشأ إسماعيل فى حراسة الله ثم أم هاشم . حياته لا تخرج عن الحىّ والميدان ، أقصى نزهته أن يخرج إلى المنيل ليسير بجانب النهر أو يقف على الكوبرى . إذا أقبل المساء وزالت حدة الشمس وانقلبت الخطوط والانعكاسات إلى انحناءات وأوهام ، أفاق الميدان إلى نفسه وتخلص من الزوار والغرباء . إذا أصخت السمع وكنت نقى الضمير فطنت إلى تنفس خفى عميق يجوب الميدان ، لعله سيدى العتريس بواب الست ــ أليس اسمه من أسماء الخدم ؟ ــ لعله فى مقصورته ينفض يديه وثيابه

من عمل النهار ، ويجلس يتنفس الصعداْء . فلو قيض لك أن تسمع هذا الشهيق والزفير ، فانظر عندئذ إلى القبة . لألاءٌ من نور يطوّف بها ، يضعف ويقوى كومضات مصباح يلاعبه الهواء . هذا هو قنديل أم هاشم المعلق فوق المقام . هيهات للجدران أن تحجب أضواءه . يمتلىء الميدان من جديد شيئاً فشيئاً . أشباح صفر الوجوه منهوكة القوى ، ذابلة الأعين ، يلبس كل منهم ما قدر عليه ، أو إن شئت: فما وقعت عليه يده من شيء فهو لابسه . نداءات الباعة كلها نغم حزين .

— حراتى يا فول .

— حَلى وع النبى صلى .

— لوبيه يا فجل لوبيه .

— المسواك سنة عن رسول الله .

ما هذا الظلم الخفى الذى يشكون منه ؟ وما هذا العبء الذى يجثم على الصدور جميعها ؟ ومع ذلك فعلى الوجوه كلها نوع من الرضا والقناعة . ما أسهل ما ينسون ! تتناول أيد كثيرة قروشاً وملاليم قليلة . ليس هنا قانون ومعيار وسعر ، بل عرف وخاطر وفصال ، وزيادة فى الكيل أو طبة فى الميزان . وقد

يكون الكيل مدلساً والميزان مغشوشاً ، كله بالبركة . صفوف تستند إلى جدار الجامع جالسة على الأرض ، وبعضهم يتوسد الرصيف . خليط من رجال ونساء وأطفال ، لا تدرى من أين جاءوا ولا كيف سيختفون . ثمار سقطت من شجرة الحياة فتعفنت فى كنفها . هنا مدرسة الشحاذين . حامل كيس اللقم ، يثقل الحمل ظهره ينادى :

ـ لقمة واحدة لله يا فاعلين الثواب ، جاعان .

والشابة التى تنبت فجأة وسط الحارة عارية أو شبه عارية :

ـ يا للى تكسى الوليه يا مسلم ، ربنا ما يفضح لك وليه !

صوتها الصارخ يجذب الوجوه للنوافذ ، وعيناها الساحرتان تستهويان المطلات ، فتمطر عليها أكوام من الخرق ورث الثياب . فى لحظة واحدة تذوب وتختفى ، فلا تدرى أطارت ، أم ابتلعتها الأرض فغارت .

وهذا بائع الدقة الأعمى الذى لا يبيعك إلا إذا بدأته السلام ، وأقرأك وراءه الصيغة الشرعية للبيع والشراء .

ينقضى النهار فيودع كرش الطرشجى بقية براميله ، وتترك أقدام الخراط عملها اليومى وأدواتها ، لتعود بصاحبها إلى الدار . لايزال الترام

هنا وحشاً مفترساً له فى كل يوم ضحية غريرة . يتقدم المساء ، ينعشه نسيم ذو دلال . تسمع من القهاوى ضحكات غضة وأخرى غليظة «حشاشى» . وإذا دلفت من الميدان إلى مدخل شارع مراسينه ، سمعت ضجيج السكارى فى خمارة أنسطاسى التى يلقبها أهل الحى بفكاهتهم « خمارة أنست » . يخرج منها سكير هائج يتطوح ويتعرض للمارة :

ــ ورونى أجعص فتوة .

ــ جتلك لهوه يا بعيد .

ــ سيبوه فى حاله داغلبان .

ــ ربنا يتوب عليه .

أشباح الميدان الحزينة المتعبة يحركها الآن نوع من البهجة والمرح . ليس فى الدنيا هم ، والمستقبل بيد الله . تتقارب الوجوه بود ، وينسى الوجيع شكايته ، ويبذّر الرجل آخر نقوده فى الجوزة أو الكتشينة ، وليكن ما يكون ! تقل أصوات اصطدام كفف الموازين ، وتختفى عربات اليد ، وتطفأ الشموع داخل المشنات ، عندئذ تنتهى جولة إسماعيل فى الميدان . هو خبير بكل ركن وشبر وحجر ، لا يفاجئه نداء بائع ، ولا ينبههم عليه

مكانه . تلفه الجموع فيلتف معها كقطرة المطر يلقمها المحيط . صور متكررة متشابهة اعتادها فلا تجد فى روحه أقل مجاوبة . لا يتطلع ولا يمل . لا يعرف الرضا ولا الغضب . إنه ليس منفصلا عن الجمع حتى تتبينه عينه . من يقول له إن كل ما يسمعه ولا يفطن له من الأصوات ، وكل ما تقع عليه عينه ولا يراه من الأشباح ،لها كلها مقدرة عجيبة على التسلل إلى القلب ، والنفوذ إليه خفية ، والاستقرار فيه ، والرسوب فى أعماقه ، فتصبح فى كل يوم قوامه . أما الآن فلا تمتاز نظرته بأية حياة . . . نظرة سليمة ، كل عملها أن تبصر .

٣

اقتربت المراهقة وأخذ جسده يفور ، وكأنه مرغم ، فهو فريسة ممزقة بين قوى دافعة وأخرى جاذبة . يهرب من الناس ويكاد يجن لوحدته . بدأ يشعر بلذة غريبة فى أن يندس بين المترددات على المسجد ، ولا سيما يوم الزيارة . فى هذا الزحام كان معنى اللباس عنده أنه فواصل بين الأجساد العارية ، يحس بها من صدمة هينة أو احتكاك وامض . فى وسط هذه

الأجساد كان يشعر بلذة المستحم فى تيار جار لا يبالى نقاء الماء . . . روائح العرق والعطر لا تكربه، بل يتشممها بخيشوم الكلاب . لا يخلو يوم الزيارة من بعض المومسات — فسيدى العتريس مأمور أن لا يصد أحداً عن الساحة — يفدن لتقديم شمعة للمقام أو للوفاء بنذر ،عسى الله أن يتوب عليهن ويمحو ما على الجبين من مقدّر مسطور . كان يراهن من قبل فلا يفطن إليهن ، أما الآن فهو يتبعهن وتعلق نظرته بهن وتتريث . واختص بانتباهته فتاةً تأتى كل يوم زيارة . سمراء جعدة الشعر ، رقيقة الشفتين . هذه هى نعيمة ، تمتاز عن زميلاتها بصمتها وقوامها الأهيف . كلهن يمشى مشية المتخاذل المنحلّ غير مكترث . أما هى ،فكأنما تسير إلى غرض ،مالكة كيانها وروحها . ذراعاها ممدودتان إلى جانبها ، يواجهك باطن كوعها. ولو دققت النظر لما وجدت من مومس إلا ذراعين مكسورتين من أثر السقوط ، وإن كانت الثنية عندها سر الخلاعة !

يبتسم إسماعيل عندما يرى الشيخ درديرى— خادم المقام — وسطهن كالديك بين الدجاج . يعرفهن واحدة واحدة ، ويسأل عن الغائبات . يأخذ من هذه شمعتها ، ويوسع لأخرى

طريق صندوق النذور . يتبدل رضاه فجأة ، فيزجرهن ويدفعهن دفعاً إلى الخروج . تأتى إليه أيضاً نسوة ورجال يسألونه شيئاً من زيت قنديل أم هاشم ، لعلاج عيونهم أو عيون أعزائهم . يشفى بالزيت المبارك من كانت بصيرته وضاءة بالإيمان ، فلا بصر مع فقد البصيرة. ومن لم يشف فليس لهوان الزيت ، بل لأن أم هاشم لم يسعها بعدُ أن تشمله برضاها . لعله عقاب آثامه، ولعله هو لم يتطهر بعدُ من الرجس والنجاسة ، فيصبر وينتظر ويتردد على المقام . فإن كان الصبر أساس مجاهدة الدنيا ، فإنه أيضاً الوسيلة الوحيدة للآخرة .

فى هذا الزيت مورد رزق متسع للشيخ درديرى ، ومع ذلك لا تظهر عليه آثار النعمة . فجلبابه القذر هو هو ، وعمامته الغبراء هى هى . وماذا يفعل بنقوده ! هل يكنزها تحت بلاطة ؟ يتهمه زملاؤه أنه يحرقها فى الحشيش، بدليل سعاله الذى لا ينقطع ، وبدليل ما فى طبعه من ميل (للقفش) والتنكيت . والحقيقة أنه مزواج ، لا يمر العام إلا ويبنى ببكر جديدة . عرفه إسماعيل من تردده على المقام ، واعتاد أن يمرّ عليه فى أغلب الليالى بعد صلاة العشاء ليتندر بحديثه . ومال الرجل للفتى

واختصه بحنانه ، هذا الحنان هو الذى حمله ذات ليلة على الإفضاء إليه بسر لم يفض به إلى أحد غيره :

— تعرف ياسى إسماعيل ليلة الحضرة ، يجىء سيدنا الحسين ، والإمام الشافعى ، والإمام الليث ، يحفون بالسيدة فاطمة النبوية والسيدة عائشة ، والسيدة سكينة ، فى كوكبة من الخيل ، ترفرف عليهم أعلام خضر ، ويفوح من أردانهم المسك والورد ، يأخذون أمكنتهم عن يمين الست وعن يسارها ، وتنعقد محكمتهم وينظرون فى ظلامات الناس ، لو شاؤوا لرفعوا المظالم جميعها . ولكن الأوان لم يئن بعد ، فما من مظلوم إلا وهو ظالم أيضاً ، فكيف الاقتصاص له ؟ فى تلك الليلة ، هذا القنديل الصغير الذى تراه فوق المقام ، يكاد لا يشع له ضوء ، ينبعث منه عندئذ لألاء يخطف الأبصار . . . إننى ساعتها لا أطيق أن أرفع عينىّ إليه . زيته فى تلك الليلة فيه سر الشفاء . فمن أجل ذلك لا أعطيه إلا لمن أعلم أنه يستحقه من المنكسرين .

كان إسماعيل غائب الذهن ، يفكر فى الفتاة السمراء التى تزمّ شفتيها . وانتبه إلى الشيخ درديرى وهو يشير بأصبعه إلى القنديل : وسنان كالعين المطمئنة رأت ، وأدركت ، واستقرت .

يصفو ضوؤه الخافت على المقام، كإشعاع وجه وسيم من أم تُلقم رضيعها ثديها فينام فى أحضانها . ومضات الذبالة خفقات قلبها حناناً ، أو وقفات تسبيحها همساً . يطفو فوق المقام كالحارس مبتعداً تبجيلا . أما السلسلة فوهم وتعلّة . . . كل نور يفيد اصطداماً بين ظلام يجثم وضوء يدافع ، إلا هذا القنديل فإنه يضىء بغير صراع ! لا شرق هنا ولا غرب ، ما النهار هنا ولا الليل ، لا أمس ولا غد .

وانتفض إسماعيل، لا يدرى ما هذا الذى مسّ قلبه !

٤

ووافقت المراهقة سنة البكالوريا . وخرج إسماعيل من الامتحان وقلبه واجف مفعم بالشكوك . وأعلنت النتيجة فإذا به ، يفوز ولكن فى ذيل الناجحين .

لقد كان أمله ورجاء الأسرة كلها أن يدخل مدرسة الطب ، فإذا بها تصده عن أبوابها . واقترب العام الجديد ، ولم يستقر على قرار . ليس أمامه إلا أن يدخل مدرسة المعلمين إن شاء، أو أن يدرس للبكالوريا من جديد، ويضيع سنة من

عمره . وكلا الأمرين بغيض إلى نفسه . لم يكن الشيخ رجب بأقل من ابنه قلقاً وحيرة . ولكم توقع بعض معارفه أن يكتفى بتعليم ابنه إلى الحدّ الذى بلغه ويوظفه بالبكالوريا ، إن لم يكن للمساعدة ، فللتخفيف عنه . آه لو علموا كيف عقد الشيخ رجب نيته على أن يدفع بابنه إلى الصفوف الأولى ! ! يذهب هنا وهناك يسأل عن حلّ . . . لا أدرى من الذى قال له :

ـ لماذا لا ترسل ابنك إلى أوربا ؟

بات الشيج رجب ليلته يتقلب على جنبيه .

علم أن هذا الحل سيكلفه من عشرة إلى خمسة عشر جنيهاً فى الشهر ، غير ما يلزم لابنه فى أول الأمر من نفقات الطريق وثياب تقيه برد الشمال ؟ أيفارق ابنه ؟ وهل ترضى أمه ؟ أم سيقف حنانها فى سبيل مستقبل إسماعيل ؟ وهل يقوى على دفع هذا المبلغ بانتظام كل شهر ؟ إنه لو فعل لما بقى للأسرة كلها إلا ما تعيش به على الكفاف والشظف . وإلى متى ؟ ست سنوات أو سبعاً ، والزمان قاس يدور دورة عكس . كما سمع أذان العشاء ، سمع أذان الفجر ، ثم أخذته غفوة هتف به خلالها صوت رقيق :

ــ توكل على الله . . .

استيقظ من نومه وقد عقد عزمه . وفهمت الأم أن لامهرب من الفراق، فرضيت صامتة وإن لم ينقطع بكاؤها . إلى أين ؟ بلاد برّه ! كلمة لها رنين وسحر تتسلل ، كروح مبهمة لا يطمئن لها، إلى المنزل الذى لا تنقطع فيه تلاوة القرآن ، وحيث الشرع هو الحق والعلم جميعاً . وثوت هذه الروح فى ركن صغير من الدار وغطت رأسها وتمطت ، ونامت منتصرة قريرة العين . بلاد برّه ! ينطق بها الأب كأنها إحسان من كافر لا مفر من قبوله ، لا عن ذلة ، بل للتزود بنفس السلاح . أما الأم ، فمنذ الآن تركبها رعدة المحيط وتأخذها رجفة البرد . تتصور بلاد بره فى نهاية سلم عال ينتهى إلى أرض تغطيها الثلوج ، ويسكنها أقوام لهم حيل الجن وألاعيبهم . أما فاطمة النبوية فقلبها واجف ، تسمع أن نساء أوربا يسرن شبه عاريات ، وكلهن بارعات فى الفتنة والإغراء . فإذا سافر إسماعيل، فلا تدرى كيف يعود، إن عادِ !

وجمع الأب كل ما استطاع جمعه من مال ، وباعت الأم حليها ، واشتريت تذاكر السفر والملابس الثقيلة التى تقى من

برد أوربا ، واقترب موعد السفر وحلّ الوداع .

واجتمعت الأسرة صامتة حزينة . قلوب خافقة ، وعيون دامعة . وأنشأ الأب يقول لابنه :

ــ وصيتى إليك أن تعيش فى بلاد بره كما عشت هنا ، حريصاً على دينك وفرائضه ، وإن تساهلت مرّة فلن تدرى إلى أين يقودك تساهلك . ونحن يا بنى نريدك أن ترجع إلينا مفلحاً لتبيض وجوهنا أمام الناس . وأنا رجل قد أوشكت على الكبر ، وقد وضعت كل آمالنا فيك . وإياك أن تغرك نساء أوربا ، فهن لسن لك وأنت لست لهن .

ثم صمت الأب قليلا وعاد يقول :

واعلم أن أملك وأنا قد اتفقنا على أن تنتظرك فاطمة النبوية ، فأنت أحق بها وهى أحق بك . هى بنت عمك وليس لها غيرك . وإن شئت قرأنا الفاتحة معاً يومنا هذا ، عسى أن يصحب سفرك البركة واليمن .

لم يسعه إلا القبول . فوضع يده فى يد أبيه ، وقرأ الفاتحة . بينهما أم تبكى ، وفتاة حيرى بين الأسى والفرح .

كان إسماعيل يعلم أن هذه الفاتحة ستأتى فى يوم ، ولكنه لم

يتوقعها فى تلك الليلة . فلقد نشأ مع فاطمة النبوية أخوين ، وقلما نظر إليها كما نظر إلى فتاته السمراء .

قرأ الفاتحة وهو شارد اللُّب ، إرضاء لأبيه ، وقلبه يقول له : « احفظ عهدك ! » فيجيبه : « لماذا ؟ لماذا ؟ » كل هذه أشياء غامضة ، لأنه حتى اليوم ما يزال طاهراً عفيفاً ، لم يقترب من امرأة . وإنه لكاذب ــ وإسماعيل لا يكذب ــ إذا أنكر أنه جوعان إلى فتاته السمراء ، إلى النساء جميعاً . ولا سيما أخيراً ! إلى نساء أوربا .

٥

وخرج إسماعيل يودع بعض أصدقائه ، ثم انتهى إلى الميدان وقد اقترب الغروب . . . تتلقف آذانه ما أمكنها من نداءات الباعة التى ألفها . وخيِّل إليه أن فى الميدان حركة غير التى عهد ، كأن القوم قد أصبحوا أسرع مشية . ما لهم لا يلوون على شىء ؟ أفليست الحياة إلا سباقاً ؟ كم ود لو وقف واحد من المندفعين وبادله الحديث . لم يلتفت إليه أحد . فى الميدان حركة النمل تتعارض وتتحاذى وتضرب فى كل اتجاه . قادته

قدماه إلى المقام ، فوجده ساكناً على غير عادته . الشيخ درديرى واقف مطأطئ الرأس ، كأنما هو متعب أو تسلط عليه خوف ورهبة . دار إسماعيل حول المقام ، حتى إذا جاء للسور الذى يفصل مكان النساء عن الرجال انتبه إلى شبح واقف وراءه . هى فتاته السمراء ألصقت جبينها على السور . سمّر إسماعيل فى مكانه وسمعها تقول هامسة :

يا أم هاشم ! يا ستارة على الولايا ، لا تغضى عينيك ولا تشيحى بوجهك . تمد إليك يد مسترحمة فخذيها . إن الله طهرك وصانك وأنزلك الروضة ، وإن قلبك لرؤوف . إذا لم يقصدك المرضى والمهزومون والمحطمون ، فمن غيرك يقصدون ؟ إذا نُسينا فاذكرى أنت ! متى يمحى المقدّر علىّ . أيرضيك أن جسدى ليس منى ، فما أشعر بالألم وهو ينهشه نهشاً . ها هى روحى على عتباتك تتلوى وتتمرغ مصروعة ، تريد أن تفيق . منذ غادرنى رضا الله وأنا كالنائم يركبه الكابوس ، يقبض فى يد واحدة على الموت والحياة ! رضيت لحكمه وأسلمت نفسى ، ولن أضيع وأنت هنا معنا . أفيطول الأمد ، أم رحمة الله قريب ؟ نذرت لك يوم يتوب المولى علىّ أن أزين مقامك الطاهر

بالشموع خمسين شمعة ، يا أم هاشم يا أخت الحسين !

ووضعت الفتاة شفتيها على سور المقام . ليست هذه القبلة من تجارتها ، بل من قلبها . ومن ذا الذى يجزم بأن أم هاشم لم تسعِ إلىّ السور وقد هيأت شفتيها من ورائه لتبادلها قبلة بقبلة ؟

همّ إسماعيل أن يخرج من المسجد ليلحقها ويكلمها ، فلم تتحرك قدماه . أراد أن يفضى لها بكل ما فى نفسه . إن لحظة الانتزاع من الأسرة والوطن ، لمواجهة الغربة والوحدة والمجهول ، تضنى أعصابه وتهصر قلبه . لماذا يهتز لمرآها دون سائر النساء ؟ أواهم هو ؟ لا . إن صوتاً خفيًّا يريد أن ينطق فى قلبه ويتكلم ويرشده إلى السر . ولكن هناك ألف غطاء وغطاء تكتم هذا الصوت وتخفته . ولعلّ الفتاة لم تره ولم تشعر به . وهرب إسماعيل من حيرته إلى الشيخ درديرى ، وحديثه الثرثار ينزل بلسماً على فؤاده . وقفته فى صمت المقام ، وتحت ضوء القنديل ، ويده معلقة بالسور تارة ، ماسحة على وجهه تارة أخرى ، هى آخر ما يذكره عن رحيله من القاهرة . فكل ما حدث له بعد خروجه من المقام شمله من أخمص قدميه إلى رأسه ، كالتيار المندفع

العنيف ، يتأرجح فيه ملق القياد ، مقلوب الوضع ، فقد خلاله الزمن ترتيبه ، والمرئيات اعتدالها ، والأصوات صدقها وفروقها . وداع الأسرة ، وما أمرّه ! فى الدار وسط النحيب والبكاء ، والمحطة ، والقطار ثم الميناء وحركته ، والباخرة المجهولة وصفيرها . إننى أتخيله صاعداً سلم الباخرة شاباً عليه وقار الشيوخ ، بطىء الحركة ، غرير النظرة ، أكرش ، ساذجاً ، كل ما فيه ينبئ أنه قروى مستوحش فى المدينة . أقسم لى عمى إسماعيل فيما بعد أنه كان يحمل فى أمتعته قبقاباً ، فقد سمع الشيخ رجب أن الوضوء فى أوربا متعذر لاعتياد الناس ليس الأحذية فى البيوت . كما وصف لى وهو يبتسم سراويله وطولها وعرضها وتكتها المحلاوى . كان معه أيضاً سلة ملأى بالكعك و(المنين) . . . من عمل أمه وفاطمة النبوية .

وسافرت الباخرة .

٦

ومرّت سبع سنوات ، وعادت الباخرة .

من هذا الشاب الأنيق السمهرى القامة ، المرفوع الرأس ،

المتألق الوجه ، الذى يهبط سلم الباخرة قفزاً ؟ هو والله إسماعيل بعينه . أستغفر الله ! هو الدكتور إسماعيل ، المتخصص فى طب العيون ، والذى شهدت له بجامعات إنجلترا بالتفوق النادر ، والبراعة الفذة ، كان أستاذه يمزح معه ويقول له :

ـ أراهن أن روح طبيب كاهن من الفراعنة قد تقمصت فيك يا مستر إسماعيل . إن بلادك فى حاجة إليك ، فهى بلد العميان .

رأى فيه دراية كأنها ملهمة ، وصفاء هو سليل نضج أجيال طويلة ، ورشاقة أصابع هى وريثة الأيدى التى نحتت من الحجر الصلد دمى تكاد تحيا .

أقبل يا إسماعيل فإنا إليك مشتاقون . لم نرك منذ سبع سنوات مرت كأنها دهور . كانت رسائلك المتوالية ، ثم المتراخية ، لا تنفع فى إرواء غلتنا . أقبل إلينا قدوم العافية والغيث . وخذ مكانك فى الأسرة ، فستراها كالآلة وقفت بل صدئت لأن محركها قد انتزع منها . آه ! كم بذلت هذه الأسرة لك . فهل تدرى ؟

لم ينم إسماعيل ليلة الوصول إلا غراراً . قفز إلى ظهر الباخرة

مع الفجر يريد ألا يفوته أول ما يبدو من شاطئ الإسكندرية . لا يرى شيئاً على الأفق ، ولكن خياشيمه تتشمم فى النسيم رائحة لم يألفها من قبل . أول من لقيه من وطنه مخلوق الكون كله وطنه . طائر أبيض ، منفرد يحوم حول السفينة ، طليق متعال ، نظيف ، وحيد . لماذا تتعمد البواخر كل هذا التلكؤ عند الوصول ، وما كان أسرعها عند الفراق ؟ إنها تتهادى بدلال العودة ، فما لها وللركاب وما يشعرون . كتم إسماعيل عن أهله موعد الباخرة حتى لا يكلف أباه الشيخ مشقة السفر للإسكندرية. فى عزمه أن يبرق إليهم بموعد وصول قطاره للقاهرة . هذا هو الفنار المتمنطق . وهذا هو الشاطئ الأصفر يكاد يكون فى مستوى الماء . أنت يا مصر راحة ممدودة إلى البحر لا تفخر إلا بانبساطها . ليس أمامك حواجز من شعاب خائنة ، ولا على شاطئك جبال تصد . أنت دار كل ما فيها يوحى بالأمان ... ها هو أول قارب يظهر ، فيه شيخ قد وخط الشيب لحيته ، مقوس الظهر ، أقعى كالقرد فى مقدم قاربه يصطاد . جلبابه الأزرق، أو الذى كان أزرق ، ممزق مرقع . وقعت نظرة إسماعيل على سيدة مصرية وقفت بجواره ، فرآها

مطلة على الصياد ، مغرورقة عيناها بالدموع وسمعها تتمتم :
ـ مصر ! مصر !

كيف ينتبه لها الصياد، وهو لم ينتبه للباخرة كلها ! مثلها كثيرات داخلات خارجات تكاد تصدم قاربه ، ولكن هيهات لها أن تصدم عالمه المقفل . عالم يجرى على وتيرة واحدة متكررة يوماً بعد يوم . همّ إسماعيل أن ينادى هذا الشيخ ويلقى عليه السلام ، أو يلوح له بمنديل . كيف تسقط المقاييس وينهزم المنطق فى مثل تلك اللحظات التى تتأجج فيها العواطف ، وتصفو القلوب ! ورن جرس إيذاناً بموت الباخرة ، فأصبحت جثتها فريسة لجيش من النمل البشرى يهاجمها . جنود وضباط ، وإخواننا المحتلون ولو أنهم أخلاط مطربشون ، وحمالون وصيارفة وزوار . ثم اندلق الزحام والتدافع ، وتعالت النداءات ، وكثر العناق والتقبيل . وإسماعيل وسط التيار ، غير مغمور . يلتقط بنهم كل ما يصل إليه ، وعلى شفتيه ابتسامة حلوة مطمئنة . له أذن فارزة واعية ، ونظرة حية يقظة تريد أن ترى كل شىء، وتفهم كل شىء . إذا دققت النظر إليه، وجدت تكورات وجهه قد زالت، وشُد شدقاه فى أخدودين . كانت

شفتاه مرتخيتين ، قلما تنطبقان . أما الآن فقد ضمهما عزم ووثوق . يجتاز الجمارك . وفى العربة يستمع لوقع عجلاتها بين الأسفلت والبلاط ، فيذكره تنافر النغم وتناوبه بيوم السفر . كم يبدو له هذا اليوم متردياً فى هوة من ماض بعيد . بعيد كالحلم .... كيف تقوى ذكرى هذا اليوم على البقاء بعد سبع سنوات قضاها فى إنجلترا قلبت حياته رأساً على عقب ؟ كان عفًّا فغوى ، صاحياً فسكر ، راقص الفتيات وفسق . هذا الهبوط يكافئه صعود لا يقل عنه جدة وطرافة . تعلم كيف يتذوق جمال الطبيعة ، ويتمتع بغروب الشمس — كأن لم يكن فى وطنه غروب لا يقل عنه جمالا — ويلتذ بلسعة برد الشمال .

إن لم يكن له فى هذه الفترة سوى (مارى) زميلته فى الدراسة ، لكفى بها فى نسيان ماضيه . لقد أخذ هذا الفتى الشرقى الأسمر بلبها فآثرته واحتضنته . عندما وهبته نفسها ، كانت هى التى فضت براءته العذراء . أخرجته من الوخم والخمول إلى النشاط والوثوق . فتحت له آفاقاً يجهلها من الجمال : فى الفن ، فى الموسيقى ، فى الطبيعة ، بل فى الروح الإنسانية أيضاً .

قال لها يوماً :

ــ سأستريح عندما أضع لحياتى برنامجاً أسير عليه .

فضحكت وأجابت :

ــ يا عزيزى إسماعيل . الحياة ليست برنامجاً ثابتاً ، بل مجادلة متجددة .

يقول لها : « تعالى نجلس » ، فتقول له : « قم نسر » . يكلمها عن الزواج ، فتكلمه عن الحب . يحدثها عن المستقبل ، فتحدثه عن حاضر اللحظة . كان من قبل يبحث دائماً خارج نفسه عن شىء يتمسك به ويستند إليه : دينه وعبادته ، وتربيته وأصولها ، هى منه مشجب يعلق عليه معطفه الثمين. أما هى ، فكانت تقول له : « إن من يلجأ إلى المشجب ، يظل طول عمره أسيراً بجانبه يحرس معطفه. يجب أن يكون مشجبك فى نفسك » . إن أخشى ما تخشاه هى : القيود . وأخشى ما يخشاه هو : الحرية . كانت هبتها له فى مبدأ الأمر محلّ حيرته ، فكانت حيرته محل سخريتها . كان يتجافى الناس ويقدر احتمالات ودهم ، ويهتم كيف يكون حكمهم عليه . وإذا لقى من تريحه المجاملة لايجد بأساً فى مجاملته ، وقلبه غير مشارك . التعارف عنده اصطدام بين الشخصيات يخرج منه ظافراً أو خاسراً . أما هى ، فتهيم

بالناس جميعاً ، ولا تهتم بهم جميعاً . التعارف عندها لقاء ، والود متروك للمستقبل . ومع تساوى ودها للناس جميعاً ، كانت بتّارة فى إقصاء الضعيف ، والسخيف ، والمتعالم ، والرذل ، والحزين ، والمنافق . فلما تخلصت من هذه الأوشاب ، أصبحت لا ينجذب إليها إلا من تطمئن لصحبتهم .

رأته يطيل جلسته بجانب الضعفاء من مرضاه ، ويخص بعطفه من يلحظ فيه آثار تخريب الزمن للأعصاب والعقول — وما أكثرهم فى أوربا . يجلس صامتاً ينصت لشكواهم . وكان أكبر كرم منه أن يماشى منطقه منطقهم المريض . لحظته (مارى) وحلقة المرضى والمهزومين تطبق عليه يتشبثون به . كل يطلبه لنفسه . فأقدمت وأيقظته بعنف :

— أنت لست المسيح بن مريم ! « من طلب أخلاق الملائكة غلبته أخلاق البهائم ! » و « الإحسان أن تبدأ بنفسك » . هؤلاء الناس غرقى يبحثون عن يد تمد إليهم ، فإذا وجدوها أغرقوها معهم ! إن هذه العواطف الشرقية مرذولة مكروهة ، لأنها غير عملية وغير منتجة . وإذا جردت من النفع ، لم يبق إلا اتصافها بالضعف والهوان . إنما هذه العواطف قوتها فى الكتمان لا فى البوح !

كانت روحه تتأوه وتتلوى تحت ضربات معولها . كان يشعر بكلامها كالسكين يقطع من روابط حية يتغذى منها ، إذ توصله بمن حوله . واستيقظ فى يوم فإذا روحه خراب ، لم يبق فيها حجر على حجر . بدا له الدين خرافة لم تخترع إلا لحكم الجماهير . والنفس البشرية لا تجد قوتها ، ومن ثم سعادتها ، إلا إذا انفصلت عن الجموع وواجهتها. أما الاندماج فضعف ونقمة .

لم تقو أعصابه على تحمل هذا التيه الذى وجد نفسه غريقاً وحيداً فى خلائه ، فمرض وانقطع عن الدراسة ، وافترسه نوع من القلق والحيرة ، بل بدت فى نظرته أحياناً لمحات من الخوف والذعر .

وكانت (مارى) هى التى أنقذته . أخذته فى رحلة إلى الريف بأسكتلندة ، يجولان بالنهار مشياً أو على الدراجة بين الحقول ، أو يصطادان السمك ، وبالليل تذيقه من متعة الحب أشكالا وألواناً . من حسن حظه أنه استطاع أن يجتاز هذه المحنة التى يتردى فيها الكثيرون من مواطنيه الشباب فى أوربا ، وخلص منها بنفس جديدة مستقرة ثابتة واثقة . إن اطرحت

الاعتقاد فى الدين ، فإنها استبدلت إيماناً أشد وأقوى بالعلم . لا يفكر فى جمال الجنة ونعيمها ، بل فى بهاء الطبيعة وأسرارها . ولعل أكبر دليل على شفائه أنه بدأ يتخلص من سيطرة (مارى) عليه . أصبح لا يجلس بين يديها جلسة المريد أمام القطب ، بل جلسة الزميل إلى زميله . لم يدهش ، ولم يتألم كثيراً ، عندما رآها تبتعد عنه وتنصرف إلى زميل من جنسها ولونها . إنها ككل فنان يمل عمله حين يتم . شفى إسماعيل ففقد كل سحره ، وأصبح كغيره ممن تعرفهم . فلتجرب إذاً صديقها الجديد . . . على أن إسماعيل لم يقو على مغادرة إنجلترا دون أن يسعى إلى لقائها لآخر مرة . دعاها فلم ترفض، وجاءته . ولم يسأل نفسه: أعلى علم من صديقها الجديد أم على غفلة منه ؟ ووهبت له نفسها مرة أخرى ، فهذه العلاقة ليست عندها بذات بال ولا خطر . كانت ضمتها له نوعاً من المصافحة وسلام الوداع .

وهتف به وهى تنصرف على دراجتها :

ــ آمل أن أراك فى مصر يوماً من الأيام . ومن يدرى ؟ فإلى اللقاء إذاً ، ولا أقول وداعاً .

نساء العصر الحديث ! كم ذا يواجهن الاحتمالات بقلوب

ثابتة . شجرة الحياة أمامهن مثقلة بالثمر منوعته . لهن شهية مفتوحة . فلم التأسى والبكاء على ثمرة ، والشجرة مفعمة ؟

٧

والظاهرة العجيبة التى لا أستطيع تفسيرها أن إسماعيل أفاق من حبه (لمارى) فوجد نفسه فريسة حب جديد . ألأن القلب لا يعيش خالياً ؟ أم أن (مارى) هى التى نبهت غافلا فى قلبه فاستيقظ وانتعش ؟ كان إسماعيل لا يشعر بمصر إلا شعوراً مبهماً ، هو كذرة الرمل اندمجت فى الرمال واندست بينها ، فلا تميز منها ، ولو أنها مع ذلك منفصلة عن كل ذرة أخرى . أما الآن فقد بدأ يشعر بنفسه كحلقة فى سلسلة طويلة تشده وتربطه ربطاً إلى وطنه . فى ذهنه مصر عروس الغابة التى لمستها ساحرة خبيثة بعصاها فنامت . عليها الحلىّ ، و (دواق) ليلة الدخلة . لا رعى الله عيناً لم تر جمالها ، ولا أنفاً لا يشم عطرها ! متى تستيقظ ؟ متى ؟ وكلما قوى حبه لمصر ، زاد ضجره من المصريين . ولكنهم أهله وعشيرته ، والذنب ليس ذنبهم . هم ضحية الجهل والفقر والمرض والظلم الطويل المزمن . إنه حدّق

فى الموت مراراً ، وجس المجذوم، واقترب فمه من فم المحموم . ترى هل ينكص الآن عن لمس هذه الكتلة البشرية التى لحمه من لحمها ودمه من دمها ؟ قد عاهد نفسه فى حبه لمصر أن لا يرى منكراً إلا دفعه . علمته (مارى) كيف يستقل بنفسه ، وهيهات لهم بعد ذلك أن يجرعوه خرافاتهم وأوهامهم وعاداتهم . ليس عبثاً أن عاش فى أوربا وصلى معها للعلم ومنطقه . علم أن سيكون بينه وبين من يحتلك بهم نضال طويل ، ولكن شبابه هوّن عليه القتال ومتاعبه . بل كان يتشوق إلى المعركة الأولى . وسرح ذهنه فإذا هو كاتب فى الصحف، أو خطيب فى أحد المجتمعات يشرح للجمهور آراءه ومعتقداته .

وتحرك القطار بإسماعيل ولم يرسل برقيته . لا يدرى لماذا ضعف عن لقائهم بالمحطة وسط الضجيج والضوضاء وعلى أعين الناس ، وربكة المتاع . إنه يود أن يلقى أعزاءه فى دارهم ، وعلى نجوة من الغرباء . ولم يقدر وقع المفاجأة على أبيه وأمه العجوز . ذكرهما فوجف قلبه . هل يستطيع أن يؤدى لهما بعض ما هو مدين به ؟ إنه قادم مزوّد بنفس السلاح الذى أراده له أبوه ، وسيشق لنفسه بهذا السلاح طريقه إلى أول الصفوف . وسيعرض

عن خدمة الحكومة ويفتح عيادة فى أرقى أحياء القاهرة . وسيدهش القاهريين أولا ثم المصريين جميعاً بما أتقنه من فن واكتسبه من خبرة . فإذا تدفق عليه المال أعفى أباه الشيخ من العمل، واشترى له أرضاً فى بلدهم ليعيش مستريحاً . ثم وجم إسماعيل . لقد تذكر أنه لم يأت معه من أوربا بهدية لأسرته ، وسرى عنه إذ قال لنفسه :

ــ ماذا فى أوربا كلها يصلح لأبى وأمى ؟

وفاطمة النبوية ؟ ذكراها تثير فى نفسه بعض الاضطراب ، لم يزل مرتبطاً بوعده ، وقد عاد حراً ، فلا عذر له إذا اعتذر . هذه مسألة معقدة فلنتركها للمستقبل .

وأطل من النافذة فرأى أمامه ريفاً يجرى كأنما اكتسحته عاصفة من الرمل، فهو مهدّم معفر متخرب. الباعة على المحطات فى ثياب ممزقة، تلهث كالحيوان المطارد، وتتصبب عرقاً .

ولما سارت العربة من المحطة ، ودخلت شارع الخليج الضيق الذى لا يتسع لمرور الترام، كان أبشع ما يتصوره أهون مما رآه : قذارة وذباب ، وفقر وخراب ، فانقبضت نفسه ، وركبه الوجوم والأسى ، وزاد لهيب الثورة فى قرارة نفسه ، وزاد التحفز .

ووقف أمام البيت ، وتناول مطرقته ، وتركها تسقط ، فاختلطت دقتها بدقات قلبه . سمع صوتاً رقيقاً ينادى بلهجة نساء القاهرة :

— مين ؟

— أنا إسماعيل ! افتحى يا فاطمه !

٨

يا إسماعيل . ما أقساك ! وما أجهل الشباب !

كادت أمه يغمى عليها ، وانعقد لسانها وهى تضمه وتقبل وجهه ويديه ، تشهق وتبكى . يا لله ! كم شاخت وتهدلت وضعف صوتها وبصرها ! إن الغائب فى وهم ، يتوقع أن يعود لأحبابه فيجدهم كما تركهم منذ سنوات . صوت يهمس فى قلبه :

— ليست لها من الشخصية نصيب ! ليست إلا كتلة من طيبة سلبية .

وجاءه أبوه تفيض عليه ابتسامة هادئة . اشتعل شيبه وإن لم تنحن قامته . فى عينيه نظرة مشوبة من إعياء وصبر ، من

راحة ضمير وشعور بالحمل الثقيل . سيعلم إسماعيل فيما بعد أن الأزمة كوته بنارها فانتكست أموره ، ومع ذلك لم يتأخر فى يوم ما عن موعد إيداع النقود بالبنك لابنه . لم يذكر لإسماعيل ما يعانيه أو يدعوه إلى الاقتصاد أو يستعجله للعودة . يلهو إسماعيل فى أسكتلندة مع رفيقته . يأكل البفتيك ، وأبوه قعيد داره ، عشاؤه طعمية أو فجل .

لإسماعيل نظره من طرف عينيه تطوف فى الدار ، فإذا هى أضيق وأشد ظلمة مما كان يذكر . أما يزال ضوؤهم من مصباح البترول ؟ قطع الأثاث بالية متناثرة تبدو — رغم مر السنين وطول الصحبة — كأنها مهاجرة فى دار غربة . ولماذا هم على البلاط وأين البساط ؟

هذه أم محمد ترتبك كعادتها بين الأطباق والحلل ، وهى تزغرد ، فيزجرها ويقول لها :

— بس بلاش خوته ، يا وليه اعقلى .

ولكن أين فاطمة النبوية ؟ أقبلت ، فإذا أمامه فتاة فى شرخ الصبا . ضفيرتاها ، وأساورها الزجاجية الرخيصة ، وحركاتها ، وكل ما فيها وما عليها ، يصرخ بأنها قروية من أعماق الريف .

هل هذه هى الفتاة التى سيتزوجها ؟ علم منذ اللحظة أنه سيخون وعده وينكث عهده . وما لها معصوبة العينين ؟ فهى ترفع ذقنها لتستطيع أن ترى وجهه . لم يدعها الرمد منذ سافر ، وساء حالها يوماً بعد يوم .

وأعد العشاء وجلسوا ، ولعلهم جلسوا من أجله حول مائدة لهم من الخشب الأبيض ، لم يأكل عليها أحد . لم يأكلوا هم من حدة الفرح ، ولم يأكل هو من صدمة اليقظة . اعترف لى إسماعيل فيما بعد بأنه — حتى فى اللحظة التى كان يجب أن تشغله سعادة العودة إلى أحضان والديه عن القياس والمقارنة والنقد — لم يملك نفسه عن التساؤل ! كيف يستطيع أن يعيش بينهم ؟ وكيف يجد راحته فى هذه الدار ؟

وأعد الفراش . وأبى الشيخ رجب إلا الانصراف إلى غرفته ليترك ابنه يستريح من عناء السفر . وهذه أمه تجذب نفسها جذباً وتهم بتركه ، ولكنها تشير إلى فاطمة وتقول :

— تعالى يا فاطمة ، قبل أن تنامى ، أقطر لك فى عينيك .

ورأى إسماعيل أمه وفى يدها زجاجة صغيرة ، وترقد فاطمة على الأرض وتضع رأسها على ركبة الأم ، فتسكب من الزجاجة

فى عينيها سائلا تتأوه منه فاطمة وتتألم .

سألها إسماعيل :

ـــ ما هذا يا أمى ؟

ـــ هذا زيت قنديل أم هاشم . تعودت أن أقطر لها منه كل مساء .

لقد جاءنا به صديقك الشيخ درديرى . إنه يذكرك ويتشوق إليك . هل تذكره ؟ أم تراك نسيته ؟

قفز إسماعيل من مكانه كالملسوع . أليس من العجيب أنه ـــ وهو طبيب عيون ـــ يشاهد فى أول ليلة من عودته ، بأية وسيلة تداوى بعض العيون الرمد فى وطنه ؟ . . .

تقدم إسماعيل إلى فاطمة فأوقفها ، وحل رباطها ، وفحص عينيها ، فوجد رمداً قد أتلف الجفنين وأضر بالمقلة ، فلو وجد العلاج المهدئ المسكن لتماثلت للشفاء ، ولكنها تسوء بالزيت الحار الكاوى .

فصرخ فى أمه بصوت يكاد يمزق حلقه :

ـــ حرام عليك الأذية . حرام عليك . أنت مؤمنة تصلين ، فكيف تقبلين أمثال هذه الخرافات والأوهام ؟

وصمتت أمه وانعقد لسانها ، تحاول أن تتمتم ولا تبين .

ورأى إسماعيل شبح أبيه على الباب ، فى جلباب أبيض قصير ، وعلى رأسه طاقية تحتها وجه مربد . هل يتوقع قلبه الحنون مكروهاً ؟ ماذا ؟ لعل فى تصرفات إسماعيل وحركاته ونظراته ما أيقظ فى نفسه منذ اللحظة الأولى بعض الريبة . ما هذا الصراخ ؟ ماذا حدث ؟

ونطقت أمه أخيراً تستعيذ بالله وتقول له :

ـ اسم الله عليك يا إسماعيل يا ابنى . ربنا يكملك بعقلك. هذا غير الدوا والأجزا . هذا ليس إلا من بركة أم هاشم .

وإسماعيل كثور هائج لوحت له بغلالة حمراء .

ـ أهى دى أم هاشم بتاعتكم هى اللى ح تجيب للبنت العمى . سترون كيف أداويها فتنال على يدى أنا الشفاء الذى لم تجده عند الست أم هاشم .

ـ يا ابنى ده ناس كتير بيتباركوا بزيت قنديل أم العواجز . جربوه وربنا شفاهم عليه . إحنا طول عمرنا جاعلين تكالنا على الله وعلى أم هاشم . ده سرها باتع .

ـ أنا لا أعرف أم هاشم ولا أم عفريت .

هبط على الدار صمت مقبض كصمت القبور . فى هذا البيت تعيش قراءة القرآن والأوراد ، وصدى الأذان . كأنها جميعاً استيقظت وانتبهت ، ثم أطرقت وانطفأت ، وحل محلها ظلام ورهبة . . . لا عيش لها مع هذه الروح الغريبة التى جاءت لهم من وراء البحار .

وسمع صوت أبيه كأنما يصل إليه من مكان سحيق :

ـ ماذا تقول ؟ هل هذا كل ما تعلمته فى بلاد بره ؟ كل ما كسبناه منك أن تعود إلينا كافراً ؟

كل ما فعله إسماعيل بعد ذلك يدل على أن المرض العصبى القديم قد عاوده فجأة ، وانفجر بشدة من جديد . فقد وعيه وشعر بحلقه يجف ، وبصدره يشتعل ، وبرأسه يموج فى عالم غير هذا العالم. شب على قدميه واقفاً . لاشك أن فى نظرته ما يخيف ، فقد تضاءلت الأم أمامه وابتعد الأب عن طريقه . هجم إسماعيل على أمه يحاول أن ينتزع منها الزجاجة ، فتشبثت بها لحظة ، ثم تركتها له . فأخذها من يدها بشدة وعنف ، وبحركة سريعة طوح بها من النافذة .

وكان صوت تحطمها فى الطريق دوى القنبلة الأولى فى المعركة.

ووقف إسماعيل حائراً لحظة ، له نظرة تجوب ما حوله وتتنقل من وجه أمه وفاطمة إلى وجه أبيه . وجد إشفاقاً وعطفاً ، ولم يجد تسامحاً وفهماً . ربما استشف فى نظرتهم بعض الرعب ، فتزايد هياجاً وانطلق إلى الباب . وفى طريقه وجد عصا أبيه فأخذها ثم هرب من الدار جرياً . لن ينكص عن أن يطعن الجهل والخرافة فى الصميم طعنة نجلاء — ولو فقد روحه .

٩

أشرف على الميدان فإذا به يموج كدأبه بخلق غفير ، ضربت عليهم المسكنة ، وثقلت بأقدامهم قيود الذل . ليست هذه كائنات حية تعيش فى عصر تحرك فيه الجماد . هذه الجموع آثار خاوية محطمة كأعقاب الأعمدة الخربة ، ليس لها ما تفعله إلا أن تعثر بها أقدام السائر . ما هذا الصخب الحيوانى ؟ وما هذا الأكل الوضيع الذى تلتهمه الأفواه ؟ يتطلع إلى الوجوه فلا يرى إلا آثار استغراق فى النوم كأنهم جميعاً صرعى أفيون . لم ينطق له وجه واحد بمعنى إنسانى . هؤلاء المصريون : جنس سمج ثرثار ، أقرع أمرد ، عار حاف ، بوله دم ، وبرازه

ديدان . يتلقى الصفعة على قفاه الطويل بابتسامة ذليلة تطفح على وجهه . ومصر ؟ قطعة (مبرطشة) من الطين أسنت فى الصحراء، تطنّ عليها أسراب من الذباب والبعوض، ويغوص فيها إلى قوائمه قطيع من الجاموس نحيل . . . يزدحم الميدان ببائعى اللب والفول ، وحب العزيز ، ونبوت الغفير ، والهريسة والسمبوسكة ، بمليم الواحدة . فى جنباته مقاهٍ كثيرة على الرصيف بجوار الجدران ، قوامها موقد وإبريق وجوزة . أجساد لم تعرف الماء منذ سنين . الصابون عندها والعنقاء سواء . تمر أمامه فتاة مزججة الحواجب ، مكحلة العينين ، شدت ملاءتها لتبرز عجيزتها وطرف ثوبها ، وتحجبت ببرقع يكشف عن وجهها . وما معنى هذه القصبة التى تضعها على أنفها ؟ أف ! ما أبشع رياء هذا المنظر وما أقبحه ! سرعان ما بدأ الناس يتحككون بها كأنهم كلاب لم يروا فى حياتهم أنثى ! هنا جمود يقتل كل تقدم، وعدم لا معنى فيه للزمن ، وخيالات المخدر ، وأحلام النائم والشمس طالعة . . .

لو استطاع إسماعيل لأمسك بذراع كل واحد منهم وهزه هزة عنيفة وهو يقول :

ـــ استيقظ . استيقظ من سباتك وأفق ، وافتح عينيك . ما هذا الجدل فى غير طائل ؟ والشقشقة والمهاترة فى سفاسف ؟ تعيشون فى الخرافات ، وتؤمنون بالأوثان ، وتحجون للقبور ، وتلوذون بأموات !

وعثرت قدمه بطفل ملقى على الرصيف ، والتف حوله جموع من الشحاذين يعرضون عليه عاهات يرتزقون منها رزقاً حلالا . كأنها من نعم الله عليهم ، أو مهن وصناعات .

وشعر إسماعيل بأن هذه الجموع أشلاء ميتة تطبق على صدره ، وتكتم أنفاسه ، وتبهظ أعصابه . يصطدم به بعض المارة كأنهم عمى يتخبطون . هذا الرضا عجز ، وهذه الطيبة بلاهة ، وهذا الصبر جبن ، وهذا المرح انحلال .

انفلت إسماعيل من الزحام، وجرى إلى الجامع ودخله ، واجتاز الصحن إلى الحرم . المقام يتنفس بدل الهواء أبخرة ثقيلة من عطور البرابرة . هذا هو القنديل قد علق التراب بزجاجه، واسودت سلسلته من (هبابه) . تفوح منه رائحة احتراق خانقة . أكثر ما ينبعث منه دخان لا بصيص ضوء . هذا الشعاع إعلان قائم للخرافة والجهل . يحوم فى سقف المقام خفاش اقشعر له بدنه .

حول المقام أناس كالخشب المسندة ، وقفوا مشلولين متشبثين بالأسوار . فيهم رجل يستجدى صاحبة المقام شيئاً لم يفهمه إسماعيل ، وإنما وعى أنه يستعديها على خصم له ، ويسألها أن تخرب بيته وتيتم أطفاله . والتفت إسماعيل إلى ركن فى المقام، فوجد الشيخ درديرى يناول رجلا معصوب الرأس بمنديل نسائى زجاجة صغيرة فى حرص وتستر ، كأنما هى بعض المهربات . لم يملك إسماعيل نفسه . . . فقد وعيه ، وشعر بطنين أجراس عديدة ، وزاغ بصره ، ثم شب ، وأهوى بعصاه على القنديل فحطمه ، وتناثر زجاجه ، وهو يصرخ .

ـــ أنا . . . أنا . . . أنا . . .

ثم لم يستطع أن يتم جملته . (ومن يدرى ماذا كان سيقول ؟) هجمت عليه الجموع ، وتهدمت فوقه ، فخر على الأرض مغمى عليه . ضربوه ، وداسوه بالأقدام ، وجرح رأسه ، وسال الدم على وجهه ، ومزقت ثيابه .

علمنا بعد ذلك أنه أشرف على الموت تحت الأقدام ، لولا أن تعرف عليه الشيخ درديرى ، فأنقذه واستخلصه من غضب الناس وعنفهم وهو يقول :

ــ اتركوه ! إننى أعرفه . هذا سى إسماعيل ابن الشيخ رجب . من حتتنا . اتركوه . ألا ترون أنه (مريوح) .

واحتمله إلى الدار ، ووضعوه على الفراش، واجتمعت الأسرة فى ليلة الفرح بعودته تبكى صوابه المفقود .

لعن الله اليوم الذى سافرت فيه يا إسماعيل ؟ ليتك ظللت بيننا ولم تفسدك أوربا فتفقد صوابك ، وتهين أهلك ووطنك ودينك .

صكت الأم وجهها ، وتأوه الأب وكتم ألمه وغيظه ، وسكبت فاطمة دموعها مدراراً .

١٠

ومرت أيام كثيرة وإسماعيل لايغادر الفراش . ركبه العناد، فأدار وجهه للجدار لا يكلم أحداً ولا يطلب شيئاً . ولما أفاق قليلا بدأ يفكر : هل يعود إلى أوربا ليعيش وسط أناس يفهمون الحياة ؟ إن الجامعة عرضت عليه منصب مساعد أستاذ فرفضه بغباوة ، ولعلهم يقبلونه الآن إذا طلب . ولم لا يتزوج هناك، ويبنى لنفسه أسرة جديدة بعيداً عن هذا الوطن المنكود ؟ لماذا

ترك إنجلترا بريفها الجميل ، وأمسياتها الهنيّة ، وقسوة شتائها الجبار ، وجاء لبلد يفرون فيه من بعض الرذاذ كأنما تحيق بهم نكبة أو يدهمهم طوفان ؟ أما يدرون أن هناك وجوهاً صامتة ونظرة ثابتة ، تسير تحت المطر والثلوج تقاوم الأعاصير ؟ وما فائدة الجهاد فى بلد كمصر ومع شعب كالمصريين ، عاشوا فى الذل قروناً طويلة، فتذاوقوه واستعذبوه ؟

ثم أخذته غفوة ، واختلط عليه الأمر . إنه كالطير قد وقع فى فخ ، وأدخلوه القفص ، فهل له من مخرج ؟ يشعر بجسمه وقد شد إلى هذه الدار التى لا يطيقها ، وربط إلى هذا الميدان الذى يكرهه ، فمهما حاول فلن يستطيع فكاكا .

واستيقظ إسماعيل ذات صباح وهو يشعر بنشاط عجيب. فى مثل هذه الأحوال يقفز الشخص من النقيض إلى النقيض فجأة وبلا سبب ظاهر . وخرج من الدار مبكراً، وعاد يحمل حقيبة ملأى بالزجاجات والأربطة والمراود، وبدأ علاجه لفاطمة كما يقتضيه طبه وعلمه . لقد عالج فى أوربا أكثر من مئة حالة مثلها ، فلم يخنه التوفيق فى واحدة . فلماذا لا ينجح مع فاطمة أيضاً ؟ وسلمت الفتاة إليه نفسها مطمئنة ، لا يهمها

مرضها، بقدر ما يهمها أن تكون بين يديه موضع عنايته ورفقه . وتجنبه أبوه وأمه ، ولم يعودا يعارضانه فى شىء إشفاقاً على صحته.

فى الصباح تجلس فاطمة بين يديه وقبل النوم . ومرّ يوم وثان وثالث ورابع ، وأسبوع وآخر ، وعيون فاطمة على حالها ، ثم إذا بها تسوء فجأة وتلتهب ، ويختلط سوادها بالبياض .

ضاعف إسماعيل عنايته ، وكرر أنواع الأدوية ، وقلب جفونها ومس ، وقطّر ومرهم ، وكشط ومسح ، فما أجدى طبه نفعاً . إنه ليس بالجاهل ، يرى أمامه فاطمة اقتربت من العمى ولا ينقذها فى علمه حيلة .

أخذها إلى زملائه فى كلية الطب ، وعرضها على الأساتذة ، فوافقوه على طريقته فى العلاج ، ونصحوه بالاستمرار .

فقاوم وثابر . . . وأخيراً استيقظت فاطمة على صباح وهى تفتح عينيها ولا ترى . . . لقد انطفأ آخر بصيص تتعزى به .

١١

هرب إسماعيل من الدار ، لم يستطع الإقامة فيها وفاطمة أمامه ، وعماها دليل على عماه . عيون أبيه وأمه تلومانه . ما الذى

حدث ؟ لماذا أخفق ؟ إنه لا يفهم شيئاً . أين يذهب ؟ لم يبدأ بعد عملا ، ولا هو بقادر ولا راغب فى الالتجاء للحكومة لتعيينه فى إحدى القرى النائية . باع كتبه وبعض الأدوات التى أحضرها معه من أوربا ، وسكن فى غرفة ضيقة فى بنسيون مدام إفتاليا ، وهى سيدة يونانية بدينة أخذت تستغله منذ أول وقوعه فى يدها ، حتى لتكاد تضع فى كشف الحساب تحية الصباح ، أو تستقضيه خطوتها إذا قامت وفتحت له الباب . حاسبته مرة على قطعة سكر استزادها فى إفطاره . يحس بابتسامتها أصابع تفتش جيوبه . أهداها بعض الفطائر والسجائر فأخذتها نهمة متلهفة ، وفى الصباح سألته أن لا يطيل السهر فى غرفته حرصاً على الكهرباء . لاشك أن الأفرنج فى مصر من طينة أخرى غير التى رآها فى أوربا . كان يحبس نفسه فى غرفته ، فطردته هذه المعاملة إلى الشوارع يجوبها من الصباح إلى منتصف الليل . وفى كل ليلة يجد نفسه — ولا يدرى كيف — وسط ميدان السيدة يجوب حول داره ، يتطلع إلى نوافذها ، يريد أن يرى وجه فاطمة أو يسمع صوتها . فاطمة ضحيته ، ومع ذلك لم تثر . . . لم تشك . . . لم تلمه . أسلمت إليه نفسها

عن رضى فأوردها التلف ، فما قالت لذابحها تريث . . .
وهكذا يظل واقفاً فى الميدان ، ساعات طويلة ، سارح الذهن ، شارد اللب ، تتسرب إلى أذنه النداآت القديمة . هى هى لم تتغير . ماذا ؟ لعل كل والد أورث ابنه مهنته وصوته وموضعه فى الميدان ! مساكين ! كل من خدمهم منَّ عليهم واستعجلهم الجزاء أضعافاً مضاعفة . لم يخدمهم أحد لله أو حبًّا فيهم ، ومع ذلك جروا وراء كل من توهموا فيه الإخلاص وتشبثوا بأذياله ، ورفضوا أن يرو ضعفه أو خيانته . هذا شعب شاخ فارتد إلى طفولته. لو وجد من يقوده لقفز إلى الرجولة من جديد فى خطوه واحدة ، فالطريق عنده معهود والمجد قديم ، والذكريات باقية.

تساءل إسماعيل : هل فى أوربا كلها ميدان كالسيدة زينب ؟ هناك أبنية ضخمة جميلة ، وفن راق ، وأناس وحيدون فرادى ، وقتال بالأظافر والأنياب ، وطعن من الخلف ، واستغلال بكل الوسائل . مكان الشفقة والمحبة عندهم بعد العمل وانتهاء النهار. يروحون بها عن أنفسهم كما يروحون عنها بالسينما والتياترو.

ولكن . لا . لا . . . لو أسلم نفسه لهذا المنطق لأنكر عقله وعلمه . من يستطيع أن ينكر حضارة أوربا وتقدمها ، وذل

الشرق وجهله ومرضه ؟ لقد حكم التاريخ ولا مردّ لحكمه ، ولا سبيل إلى أن ننكرر أننا شجرة أينعت وأثمرت زمنا ثم ذوت.

يفر إسماعيل من الميدان إلى غرفته، ويقضى ليلته يفكر كيف يهرب لأوربا من جديد ، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى موقفه المعهود بميدان السيدة فى مساء الليلة التالية .

١٢

وجاء رمضان فما خطر له أن يصوم . ابتدأ يطيل وقفته فى الميدان ويتدبر : فى الجوّ ، فى الهواء ، فى المخلوقات ، فى الجمادات كلها شيء جديد لم يكن فيها من قبل . كأن الوجود خلع ثوبه القديم واكتسى جديداً . علا الكون جو هدنة بعد قتال عنيف .

يحدث إسماعيل نفسه : لماذا خاب ؟ لقد عاد من أوربا بجعبة كبيرة محشوّة بالعلم ، عندما يتطلع فيها الآن يجدها فارغة ، ليس لديها على سؤاله جواب. هى أمامه خرساء ضئيلة ، ومع خفتها فقد رآها ثقلت فى يده فجأة .

ودار بعينيه فى الميدان . وتريثت نظرته على الجموع

فاحتملتها . وابتدأ يبتسم لبعض النكا ت والضحكات التى تصل إلى سمعه ، فتذكره هى والنداآت التى يسمعها بأيام صباه . . . ما يظن أن هناك شعباً كالمصريين حافظ على طابعه وميزته ، رغم تقلب الحوادث وتغير الحاكمين . (ابن البلد) يمر أمامه كأنه خارج من صفحات (الجبرتى) . اطمأنت نفس إسماعيل وهو يشعر أن تحت أقدامه أرضاً صلبة . ليس أمامه جموع من أشخاص فرادى ، بل شعب يربطه رباط واحد : هو نوع من الإيمان ، ثمرة مصاحبة الزمان ، والنضج الطويل على ناره . وعندئذ بدأت تنطق له الوجوه من جديد بمعان لم يكن يراها من قبل . هنا وصول فيه طمأنينة وسكينة ، والسلاح مغمد . وهناك نشاط فى قلق وحيرة ، وجلاد لا يزال على أشده ، والسلاح مسنون . ولم المقارنة ؟ إن المحب لا يقيس ولا يقارن . وإذا دخلت المقارنة من الباب ، ولى الحب من النافذة .

وحلت ليلة القدر . . . فانتبه لها إسماعيل ، فنى قلبه لذكراها حنين غريب . ربى على إجلالها والإيمان بفضائلها ، ومنزلتها بين الليالى . لا يشعر فى ليلة أخرى — حتى ولا ليالى العيد — بمثل ما يشعر به من خشوع وقنوت لله . هى فى ذهنه

غرة بيضاء وسط سواد الليالى . كم من مرة رفع فيها بصره إلى السماء فبهره من النجوم جمال لا يراها تنطق به بقية العام .

وغاب لحظة عن أفكاره ، فإذا به ينتبه على صوت شهيق وزفير عميق يجوبان الميدان . هذا هو سيدى العتريس ولا ريب . رفع بصره . القبة فى غمرة من ضوء يتأرجح يطوف بها . انتفض إسماعيل من رأسه إلى أخمص قدميه . أين أنت أيها النور الذى غبت عنى دهراً ؟ مرحباً بك ! لقد زالت الغشاوة التى كانت ترين على قلبى وعينى . وفهمت الآن ما كان خافياً على . لا علم بلا إيمان . إنها لم تكن تؤمن بى ، إنما إيمانها ببركتك أنت وكرمك ومنّك . ببركتك أنت يا أم هاشم .

ودخل إسماعيل المقام مطأطئ الرأس فأبصره يرقص عليه ضوء خمسين شمعة زينت جوانبه ، والشيخ درديرى يتناولها واحدة واحدة من فتاة طويلة القامة سمراء اللون ، جعد الشعر . هى نعيمة ! ! قد زال انطباق شفتيها وبدت لها سنّان . وإن تكلمت فصف من أسنان بيض كاللؤلؤ . تكفى النظرة إليها أن تنسى وجود كل قبيح .

لقد صبرت وآمنت ، فتاب الله عليها ، وجاءت توفى

بنذرها بعد سبع سنوات . لم تقنط ، ولم تثر ، ولم تفقد الأمل في كرم الله .

أما هو ــ الشاب المتعلم ، الذكى المثقف ــ فقد تكبر وثار ، ونهجم وهجم ، وتعالى فسقط .

ورفع إسماعيل بصره ، فإذا القنديل فى مكانه يضىء كالعين المطمئنة التى رأت ، وأدركت ، واستقرت . خيل إليه أن القنديل ، وهو يضىء ، يومىء إليه ويبتسم .

وجاءه الشيخ درديرى يسأله عن صحته وأخباره ، فيميل عليه إسماعيل يقول :

ــ هذه ليلة مباركة يا شيخ درديرى ، أعطنى شيئاً من زيت القنديل .

ــ والله أنت بختك كويس . . . دى ليلة القدر ؟ وليلة الحضرة كمان .

وخرج إسماعيل من الجامع وبيده الزجاجة وهو يقول فى نفسه للميدان وأهله :

ــ تعالوا جميعاً إلىّ ! فيكم من آذانى ، ومن كذب علىّ ، ومن غشنى ، ولكنى رغم هذا لا يزال فى قلبى مكان لقذارتكم

وجهلكم وانحطاطكم ، فأنتم منى وأنا منكم . أنا ابن هذا الحى ، أنا ابن هذا الميدان . لقد جار عليكم الزمان ، وكلما جار واستبد ، كان إعزازى لكم أقوى وأشد .

ودخل الدار ونادى فاطمة :

ـ تعالى يا فاطمة ! لا تيأسى من الشفاء . لقد جئتك ببركة أم هاشم! ستجلى عنك الداء ، وتزيح الأذى ، وترد إليك بصرك فإذا هو حديد . . .

وشد ضفيرتها واستمر يقول :

وفوق ذلك، سأعلمك كيف تأكلين وتشربين ، وكيف تجلسين وتلبسين ، سأجعلك من بنى آدم .

وعاد من جديد إلى علمه وطبه يسنده الإيمان . لم ييأس عندما وجد الداء متشبثاً قديماً ، يجادله بعناد ولا يتزحزح . ثابر واستمر ، ولاحت بارقة الأمل . ففاطمة تتقدم للشفاء على يديه يوماً بعد يوم، وإذا بها تكسب فى آخر العلاج ما تأخرته فى مبدئه ، فهى تقفز أدواره الأخيرة قفزاً .

ولما رآها ذات يوم أمامه سليمة فى عافية ، فتش فى ذهنه وقلبه عن الدهشة التى كان يخشاها ، فلم يجدها .

١٣

وافتتح إسماعيل عيادته فى حى البغالة بجوار التلال ، فى منزل يصلح لكل شىء إلا لاستقبال مرضى العيون . الزيارة بقرش واحد لا يزيد . ليس من زبائنه متأنقون ومتأنقات ، بل كلهم فقراء ، حفاة وحافيات . والغريب أن شهرته استقرت فى القرى المجاورة للقاهرة دون القاهرة ذاتها ، فاكتظت داره بالفلاحين والفلاحات ، يجيئون بهدايا من البيض والعسل والبط والدجاج .

كم من عملية شاقة نجحت على يديه ، بوسائل لو رآها طبيب أوربا لشهق عجباً . استمسك من علمه بروحه وأساسه ، وترك المبالغة فى الآلات والوسائل اعتمد على الله ، ثم على علمه ويديه ، فبارك الله فى علمه ويديه . ما ابتغى الثروة ولا بناء العمارات وشراء الأطيان ، وإنما قصد أن ينال مرضاه الفقراء شفاءهم على يديه .

وتزوج إسماعيل فاطمة ، وأنسلها خمسة بنين وست بنات .

* * *

وكان فى آخر أيامه ضخم الجثة ، أكرش ، أكولا نهما ،

كثير الضحك والمزاح والمرح ، ملابسه مهملة ، تتبعثر على أكمامه وبنطلونه آثار رماد سجائره التى لا ينفك يشعل جديدة من منتهية . وأصيب بالربو فاحتقن وجهه ، وتندى العرق على جبينه ، وانقلب تنفسه إلى نوع من الموسيقى . وأصبح من يشاهده لا يدرى أهو متعب أم مستريح . فلما احتبست ضحكاته فى حلقه ، اجتمعت فى عينيه . فليس هناك عيون أقوى على التعبير من عيون المصدورين ، يكاد يقفز منها إليك شيطان لعوب ، كلها حب وفهم ، فيها خبث وطيبة ، وتسامح وإعزاز ، وكأنها تقول لك قبل كل شىء :

ـ ليس كل ما فى الوجود أنا وأنت ، هناك جمال وأسرار ومتعة وبهاء . السعيد من أحسها ، فعليك بها عليك . . .

إلى الآن يذكره أهل حى السيدة بالجميل والخير ، ثم يسألون الله له المغفرة . مم ؟ لم يفض إلىّ أحد بشىء ، وذلك من فرط إعزازهم له . غير أنى فهمت من اللحظات والابتسامات أن عمى ظلّ طول عمره يحب النساء ، كأن حبه لهن مظهر من تفانيه وحبه للناس جميعاً .

رحمه الله . . .

السلحفاة تطير . . .

هذه قصة خيالية ، ولكنها ليست خرافة ، فوقائعها محتملة الحدوث ، وبطلها ليس مستحيلا وجوده ، ومن يدرى ؟ ربما كان حيًّا يرزق ! والواقع أننى أعرفه ، بل تربطنى به صلة أقوى وأشهى من القرابة والنسب ، صلة الجوار . فنحن أولاد حارة واحدة . أسارع وأقول إنها — والحمد لله — حارة مسدودة . فمثل هذه الحارات وحدها هى التى تعمل فى تصفية الود بين الجيران ما تعمله الزجاجة فى تعتيق الشراب . على رأس الحارة تقوم دار داود أفندى — بطل هذه القصة الخيالية — : واجهة طويلة ، بها الباب على الحارة ، وواجهة أخرى على الشارع ، مع أنها شبر ونصف شبر عرضاً ، إلا أنها تدل على أن صاحب الدار أوجه وأغنى من بقية السكان الذين لا يستطيعون رؤية الزفّات والمواكب و « الخناقات » إلا بثنى رقابهم ، وبخطر الوقوع فى يد رجال الإسعاف .

وداود أفندى لو خرج من بين سطور هذه القصة الخيالية

وعاش ، لكان الوحيد بيننا الذى يسكن فى ملكه . والمعروف أن له أيضاً استحقاقاً فى وقف عن أم أمه أو جد جده ، فلماذا يتشبث بهذه الدار القديمة فى هذه الحارة المسدودة ؟ لو كنت مكانه لانتقلت إلى الحلمية أو المنيرة . كلنا نجله لغناه ، و (نستعبطه) لنزوله إلى مستوانا . ولعلى كنت من بين سكان الحارة، أكثرهم ارتباطاً به رغم اختلافنا فى السن والمهنة .

كنت إذا عدت لدارى من المطبعة فى صفرة الشمس ، ومررت عليه وهو جالس أمام باب داره، دعانى لمجالسته، وتشبث بى كأنه يجد لذة فى أن تصافح يده الناعمة النظيفة يداً صلبة خشنة كيدى .

فى هذه الجلسات تأتّى لى أن أنصت أو أحثه على القول ، حتّى وقفت على تاريخ حياته ، وليس فيها — مع الأسف — شىء من الأسرار التى تشرئب لها الأذن . هو من أولاد الذوات الذين ورثوا عن وارثين عن وارثين ، فكان من المعقول أن يفتقروا طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل ، فأصبحوا كالحيوان البرمائى لا هو هنا ولا هو هناك . فهم لذلك أسرع انقراضاً . هو بالنسبة إلينا غنى ، ولكنه فى الواقع فقير . ومع ذلك فهو يعتز بأصل لا يغنيه فيستريح ، ولا يسلكه فى الفقراء فيريح . . . وماذا يفعل

وهو من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ابن عز ؟ فى كرمه وجهله ، فى طيبته مع معارفه ، وازوراره بل نفوره من الغرباء . تجافيه عن العالم الخارجى فيه تمسك بالماضى ، كأنه يعيش من وراء سد الصين . له قصص شائقة عن تخوت الحمولى وعثمان . بين الحين والحين يخرج علبة بيكاربونات الصودا ويسف منها قليلا دواء لمعدته . هو متأنق لا يأكل إلا أخف الطعام فى أغلب أيامه . وهو ككل أولاد الذوات الذين تربوا فى آثار عز سالف ، وجدت فيه مع الكبرياء والأنفة كثيراً من أخلاق الصبيان وقلة دراية بالحياة فى معتركاتها .

أذكر هذا لأننى كنت جالساً معه فى إحدى الأمسيات ، فرأيت صبى شيخ الحارة قادماً علينا ، مجداً فى خطواته ، ساهم النظرة كأنه فى غيبوبة . هو زنجى وأغلب الظن أنه ولد فى بوظة أو كان مهده قرعة . وجه نحس بشفته الغليظة الباذنجانية . وعيونه المختبئة تحت جفونه المرتخية تبدو كالخرزة الزرقاء لا تفترق عن عيون التيس فى جمودها ومكرها : حتى إذا وقف أمامنا أخرج من جيب سترته ورقة صغيرة متسخة وسلمها للداود أفندى . ما هذه ؟ دارت نظرتى خلسة فى لهف حول كتفه ،

ووقعت على الورقة ، فوجدت مكتوباً عليها (١٩ أحوال) .

ـ حضرتك مطلوب في القسم باكر .

ـ ليه ؟

لا جواب .

ـ عند مين ؟

لا جواب .

تحرك الأسود وسار ، فعزرائيل لا يتريث ليبكى مع أهالى الميت . ثم ما كاد يسير خطوتين حتى أفاق لنفسه وعاد إلينا من جديد ، فأصول اللطمة أن تكون من قلمين ، ومال بوجهه ـ وجه الوابور ـ على أذن داود أفندى :

ـ عمى يرجوك ويرجوك ألا تتأخر .

ثم كان فص ملح وذاب .

داود أفندى قلق ، حائر . بين حين وآخر يسألنى : يا ترى لماذا ؟ لم أذهب للقسم فى حياتى ، وأشد ما أكره أن أتخطى بابه وأواجه هذا الصنف المسمى رجال البوليس ! أعوذ بالله ! من الذى اشتكانى ؟ هل أتيت جرماً دون أن أعلم ؟

كنت غير ملق بالى إلى همه التافه ، ولكنى انتبهت وعجبت

من أن كثيراً من الناس الطيبين لا يسلمون فى بعض الأحيان من الوهم والشك فى براءة ماضيهم . ألأن فى قلوبهم نازعاً خفيًّا إلى الإجرام ، فتختلط فى أذهانهم الرغبة بالحقيقة ، أم هم يستيقظون فجأة إلى أنه ليس هنالك دليل واحد على أن الحياة غير مزدوجة ؟ !

قد يكون الشخص الواحد مع الناس يذهب ويجىء ، ولكنه لا يستطيع أن يكون واثقاً كل الوثوق من أن ليس له فى الوقت نفسه حياة أخرى مبهمة كالأحلام ، لا يشعر بها كما لا يشعر بما حوله من ركبه الدوار : حياة تتصل طى ضباب كثيف بحياة أشد غموضاً لكائنات أخرى .

كنت أود أن أهدئ مخاوفه وأطمئنه ، لكنى خشيت أن يعود سريعاً إلى الحديث الممل العادى الذى شبعت منه ليلة بعد ليلة . وخفت أكثر أن ينقطع الحديث سريعاً ، لأن الكلمة الطيبة قلما تقبل المط . وأحسست برغبة فى البقاء على رأس الحارة ، وقد طابت الجلسة وشملنا الغروب بسحره . فى كل مرة أنتبه للحظة سقطة قرن الشمس ، أشعر أنها شهقة دوامة تحتضر ، كان انفراجها النهار وانطباقها الليل . فأخذت ـــ علم الله لا لغرض إلا إطالة الجلسة الظريفة ـــ أستثيره وأحرك مخاوفه .

ونقلت الحديث من البوليس وفظاظته، إلى البلطجية وأفاعيلهم . رئيسي فى المطبعة له شهر فى الحبس ولا يدرى لماذا . وآخر اتهمه بلطجي بالتزوير ليفرض عليه ضريبة : ولهؤلاء البلطجية حيل لا يصل إلى قرارها الشيطان إن وصل : وربما سبقوا بالشكوى ليستولوا على أجر التصلح . . . ومن يدرى ! ربما وجدوا فيك يا داود أفندى بطيبتك خير صيد، فمدوا حولك حبائلهم . ثم إننى لست مطمئناً إلى (١٩ أحوال) هذه ! ووجه صبى شيخ الحارة ينم عن شر كبير ، ولا بد أنه عالم بشىء لم يرد الإفضاء به إلينا . ولم أقم إلا بعد أن (استوى) داود أفندى ، وبعد أن استحلفنى أن أمر عليه فى الصباح لنذهب إلى القسم معاً .

* * *

لا أدرى هل تأخرت فى النوم عفواً، أم أحببت أن أستريح من سهرة الأمس . استيقظت وقد ارتفعت الشمس ، فخرجت من الحارة مهرولا كأننى هارب . ومع ذلك تشبث نظرى لحظة وأنا أجرى بباب بيت داود أفندى ، وخيل إلى أن مطرقته — وهى من نحاس على شكل يد مضمومة — تنبسط وتشير بسبابتها إلى ، إلا أن لمعانها ذكرنى سور مقام أم هاشم ، وتعلق المهزومين

والمرضى والمنكوبين بقضبانه . وانقبض قلبي خوفاً على صديقى داود أفندى . فمن نحس هذا الزمان ولؤمه أن يهان رجل طيب مسالم مثله، ويكون مثله عند دخول القسم كمثل حيوان أليف آكل عشب يجد نفسه فجأة فى غابة تعج بكل ذى ظفر وناب . مع ذلك — وهذا شأن الحياة واكتساب الرزق بعرق الجبين وقشف اليدين — نسيته ونسيت أوهامه وأنا منمح مفقود وسط آلات المطبعة وهى تضج وتصطلك فى حركات مفاجئة منتظمة كأنها نفضات مقعد محموم . . . انتبهت إلى ذكراه وأنا أمام داره فى عودتى للحارة . رأيته فى انتظارى جالساً على كرسيه متلفعاً بعباءته . عندما قاربته حمدت الله أننى وجدته فى حدة وغضب أنسياه خلقى لوعدى . ومع ذلك ما كاد يكلمنى حتى فهمت مع الأسف أن لعبتى بالأمس فى إثارة مخاوفه وتحريضه على رجال البوليس، قد أدت إلى النتيجة التى كنت أريدها ولا أتوقعها . أستغفر الله ، أقصد أتوقعها ولا أريدها . كانت الدعوة إلى القسم فى شأن مخالفة هينة : إلقاء ماء قذر فى الطريق . ومع ذلك كان الجاويش من الفظاظة وقلة الأدب ، وداود أفندى من الكبرياء وقلة الصبر ، بحيث وقعت الواقعة بينهما . ثم

لم أسنطع أن أفهم من داود أفندى ما حصل بالضبط . بكل صعوبة وبعد تردد كبير ، اعترف أن الجاويش هزه هزة أوقعت طربوشه على الأرض أمام عدد كبير من الناس ، بينهم بعض من يعرفونه من أهالى الحى . حاولت أن أخفف حدته،لكنه قاطعنى قائلا :

ـ لازم أطلب رد شرفى .

تطلعت إلى عينيه فوجدت فيهما ـلا أمارات الغضب،بل أضواء سعادة كبيرة . أردت أن أقوم بواجبى وأصرفه عن التفكير الكثير فى أمر تافه ، لكنى عدلت سريعاً، لأننى رأيت زورقه قد بدأ يتحرك من المستنقع ليخرج إلى البحر العالى بأمواجه . وانقطع حديثه المبتذل ، وأخذ يتكلم لأول مرة كلاماً لا يسير على قضيبين مرسومين . خفت عليه أن يعود إلى ركوده وابتذاله، فهدتنى الحيلة أن أقول له :

ـ رد شرفك وطالب بتعويض قرش صاغ واحد !

قلتها لأننى أعلم أن لهذه الجملة سحراً غريباً يخلب أذهان عامة الشعب والبعيدين عن المحاكم والقوانين . ولعل أكثر الحقائق بريقاً وخلباً للأذهان ما كان أساسها التناقض . فكيف يثور

من يغضب للإهانة ، ومع ذلك تنتهى ثورته بأن يثمن شرفه بقرش واحد ؟ أى شرف هذا الذى يقدر بقرش ؟ أثرت هذه الجملة فى داود أفندى ، وزاد عزماً وإصراراً على الحصول على هذا القرش الواحد .

قضيت معه ليلتين نتشاور فى كيفية رفع الدعوى ، ولكن مَنْ مِنَ المحامين يمكن أن توكل إليه القضية ويصون أمانتها . وقد وقع اختيارنا فى أول الأمر على أفضل المحامين ، ولكنه باتفاق الجميع ليس أعلمهم . أما أعلمهم فليس أقواهم سلطاناً ونفوذاً لدى رجال الحكم ، وأقواهم سلطاناً ونفوذاً ليس أكثرهم أمانة . وأخيراً اتفقنا على محام يسكن بالقرب منا ، على الأقل نستطيع أن نتردد عليه كل يوم بلا مشقة . اخترناه ، لا لفصاحته ولا لعلمه ولا لسلطانه ، بل لبخته . نعم لبخته ، فكل من اتصل به يؤكد أن سرًّا باتعاً يسنده فلا يتولى قضية إلا كسبها . أغلب زبائنه من عامة الشعب الصالحين .

عرضنا عليه الدعوى فأكد أنها رابحة وفى أقرب ميعاد ، وأن الجاويش سيجازى أشد جزاء ، وفوق ذلك يعاقب إداريًّا . وشرب داود أفندى من معسول كلامه ، فتخدرت أعصابه ، ودفع

مقدم الأتعاب جنيهين كالحلاوة .

وحددت الجلسة بعد ٤٠ يوماً .

وأخيراً ها هو القدر يتمخض بميعاد يفوز به داود أفندى .
عمود تلغراف ، لولاه ما شعر راكب القطار بحركته ولا بسرعته .

* * *

دفعته دفعاً وسط الزحام — فهو لحمة — إلى قاعة الجلسة .
وأنا متلهف إلى أن أرى كيف يكون موقفه وتلعثمه بين يدى القاضى ، ومواجهته للجاويش خصمه ثم عدوه . و « انحشرنا » فى مقعد وجلسنا ننتظر دورنا . كنت أتمنى ألا يكون داود أفندى شخصاً من دم ولحم ، بل شخصية وهمية وليدة سطور هذه القصة الخيالية ، لأننى تألمت وأنا أراه ممتقع اللون مصفراً مرتجف اليدين . جلس بجانبى كله عيون وآذان وليس منه لسانه .
أخذت أراقبه من طرف عينى ، فوجدته كالقشة فى بحر ، ينعكس فيها أقل اضطراب لسطحه علواً وهبوطاً ، ومداً وجزراً . اشتمله جو الجلسة من رأسه إلى أخمص قدميه ، وشد عليه قبضته فلا يستطيع خلاصاً . كل ما يسمعه جديد ، غريب ، رنان ، أخاذ .
وأى سحر أقوى من سحر قاعة الجلسة ! صوت الجمهور

بين همس ووجوم ، ومحاورات القاضى والمحامين والنيابة تنقله إلى عالم غير عالمه . ثم فجأة وبدون سبب ظاهر يخيم على الجميع صمت عجيب . فيشعر أنه يسقط من علو شاهق وسط الفضاء . ثم من جديد يعود التيار إلى أشده ، وإذا به محمول محلق يكاد يفقد وعيه : القفص ، والجنود ، نداء الحاجب . تلك التعابير القضائية التى تنحنى لها الجباه إجلالا ، وهى ليست إلا ألفاظاً !

لم يحضر المحامى عنا ، ونودى داود أفندى ونظرت دعواه ، ثم أجلت فى أقل من لمح البصر .

فلدفعته مرة أخرى ــ كالهم الثقيل ــ وسط الزحام خارج الجلسة . وما كاد يتخطى بابها حتى بلع ريقه لأول مرة . وماذا كان يظن وهو جالس طول عمره فوق الرصيف ؟ لم يثر فى اضطرابه أقل شفقة ، بل شعرت أنه من العدل أن يدفع ثمن تعاليه وابتعاده عن محيط الحياة التى نعيشها نحن المكدودين المتصببين عرقاً فى زحمة الحياة . ولكنى ما كدت أضع ذراعى فى ذراعه لأقوده إلى القهوة المواجهة للمحكمة ، حتى رق قلبى وملأه عطف وحنان لم يعرفهما لأحد من قبل . وجلسنا وعلى

جانبينا موائد اكتظت بوكلاء المحامين وسماسرتهم . وكنت على صلة ببعضهم ، فدعوتهم للجلوس معنا وعرفتهم بصاحبي . ولما افترقنا على رأس الحارة ،لم يقل لى داود أفندى كعادته : «نتقابل هنا » ، بل قال :

— قابلني بكرة على القهوة إياها .

دفع داود أفندى جنيهين آخرين للمحامى ليضمن حضوره فى الجلسة القادمة ، كما أرضى الشهود بما وسعه كرمه .

وكنت قد غبت عنه بضعة أيام — ولعلها أسابيع — ولما عدت إليه وجدته على القهوة إياها محاطاً بأصدقائه ! ! من وكلاء المحامين ، وكلهم يحتسى القهوة والشاى ، ويدخن النارجيلة على حسابه . وإذا به يشترك معهم فى أحاديث مهنتهم ، وتجرى على لسانه نفس الألفاظ القضائية التى يتمشدقون بها ، بل ويدخل معهم إلى الجلسة فى بعض الأحيان . لما رأيته فى هذه الحال أردت أن أساعده وأوجد له ما يشغله ، فسعيت وعرفته بقريب لى معدم ، منعه فقره من رفع دعوى للمطالبة بملك واسع يظلمه فيه رجل ذو بطش وسلطان . أردت أن أخدم الاثنين ، ويكفيني ثواب المسعى . اتفق معى داود أفندى على

أن يقوم هو بالانفاق على الدعوى، نظير اقتسام ما يحكم به مناصفة بينهما . وأسر إلى داود أفندى أنه سيرهن مصاغ زوجته ليصرف على الدعوى .

بعد يومين رأيته يحمل «دوسيها» فى يده، سائراً مجداً إلى المحكمة . . .

* * *

حدث بعد ذلك أننى نسيت جارى العزيز داود أفندى نسياناً تامًّا ، لأننى كنت قد نجحت فى تحقيق أمنية طالما كتمتها فى صدرى ، ولازمتنى الليالى تنغص على نومى وأكلى وشربى . كنت أريد أن أتخلص من وسط عمال اليومية والتحق بطبقة الأفندية! أصحاب المرتبات الشهرية . فكم أبليت نعلى ، وأحفيت قدمى ، وكم أرقت ماء وجهى وجف لسانى — ويغنى قولى هذا عن التفاصيل — حتى نلت رغبتى ، وعينت حاجباً أمام باب قلم فى وزارة . تخلصت من ماضىّ الكريه كله، وتخلصت أيضاً من الحارة المسدودة اللعينة ، وسكنت المنيرة .

مضى على فى وظيفتى زمن ، وذات يوم وأنا عائد من سوق الخضار، وفى يدى قرطاس بلح آكل منه ،مررت على

مطعم ، ولشد ما دهشت إذ وجدت فيه داود أفندى جالساً أمام طبق فول مدمس . داود أفندى « بجلبية » وجاكتة ، تجمع أصابعه بلقمة حبات الفول وتعجنها فى الزيت ، ثم تحملها كتلة واحدة — كالكرة — إلى فمه ، ويتجشأ برائحة البصل الأخضر والفجل . أشهد الله أن قلبى انشرح ، وأننى سررت كل السرور لتحسن صحته ، ولتخلصه من أمراض معدته . وأشهد الله أننى شعرت بموجة شوق قوية تملؤنى ، فجريت نحوه ومددت له يدى مشتاقاً يكاد الفرح يقفز من كيانى قفزاً .

— داود أفندى ؟ سلمات ، ازيك !

ولكنه ترك يدى ولم يأخذها ، ولما رفع إلىّ عينيه لم تستقر نظرته على وجهى حتى رأيتها تمتلىء بأقصى ما تستطيع العين أن تستوعبه من الكراهية والتأفف والبغض ، وإذا به يصرخ فى وجهى ويشيح عنى :

— روح الله يخرب بيتلك زى ما خربت بيتى !

تملكتنى الحيرة فسمرت فى مكانى : أى جرم أتيت ؟ وماذا فعلت ؟ لا أذكر إلا أننى كنت دائماً تحت أمره كأننى عكازه . كنت أجلس منه مجلس الولد من أبيه ، وأترك عملى

لأكون فى خدمته ، ولا أذكر أننى خنته أو آذيته أو أضللته .

ولكن هذه المحاولات لم تفلح فى سند سياج كنت أقيمه بكل جهدى طول الوقت، لتتحصن وراءه نفسى ، ولو لتعيش فى دنيا أوهامها فى حمى من شك خفى بدأ يدب فى قلبى . . . وإذا بالسياج يرغمنى وينهد، وتبرز لى من ورائه تحملق فى وجهى كعيون البوم ، تهمة بشعة كالعدم ، قاسية كالقدر المترصد ، راسخة كالأزل .

(كن طيباً ما أمكنك ، حذراً ما استطعت ، فلن تكون يدك إلا أذى، ولا قدمك إلا سوءاً) . شعرت فى جسمى ببرودة الموت ، وعشت زمناً أرثى لحالى وأقول : يا لى من مسكين ! ولكن سرعان ما أنفت هذه الضعة ، وأعدت نفسى للحياة — والحياة تقوى على أقوى الآلام ! — بقولى لنفسى :

— هون عليك . . . أين فجيعتك ؟ هذه قصة خيالية ، ولكنها ليست خرافة . . .

وهكذا من أول وجديد .

كنا ثلاثة أيتام . . .

ها هو قد تزوج ، وها هو يقبل زوجته ، فى كل قبلة يدعو الله أن يرزقه ولداً صالحاً تتجدد من بذرته شجرة أسرة ، ليست — وهنا العجب — بذات جاه أو ثراء. وجاء يومه المرجوّ، وسلمته القابلة لفة لها لين العجين ورائحته . وقالت :

— بنت . بنت . هذه نعمة الله . . .

فسماها نعمات .

لم يدرك أن فى أغلب الرجاء طمع ، وأن بعض الدعاء جحود وتدخل فى الملكوت . . . وعاد إلى سؤال ربه فى صلاته ، وأطال تضرعه فى ركوعه وسجوده .

وجاء يومه المرتقب ، بين الخشية والأمل ، وسلمته القابلة لفة تتلوى كالحشرة ، وقالت :

— بنت . بنت . هذه عطية من الله . . .

فسمّى الثانية عطيات.

«نعمات» و «عطيات» . لم تكن أسماءً بقدر ما هى تلميح

بأن الرضا عن اضطرار ، وأن خضوع اليوم مرتبط بالرجاء فى تحقيق الوعد غداً . حرّك الأب الأبتر كل ما فى قلبه من شعل الإيمان ، وتوجه إلى الله بكل ما قدر عليه من خشوع ، وكرّر ابتهاله وتذلله . فاستجيب فى يومٍ دعاؤه . واستقر فى بطن الأم سرّ الصبى الموعود .

حينئذ مات أبى ، وهو لا يعلم أنه فاز بأمنيته : أوفى جهده على الغاية ، وتحقق الغرض من وجوده . وكان ثمن انطلاق السهم تمزق الوتر المشدود . إن سعادة الأفراد لا وزن لها فى تسلسل الأجيال .

وهكذا وُلدت يتيما ، ومع ذلك لست بغريب عن أبى . كل مرة أدخل فيها غرفة الاستقبال وتقع عينى على صورته الفوتوغرافية الشاحبة على الجدار ، أراه يبتسم لى ، ويكاد ينادينى . . .

* * *

ولم أكد أوظف بالحكومة وأقبض أول مرتب ، حتى ماتت أمى . كأنها لم تقو على فراقنا إلا بعد أن اطمأنت علىّ . وسرت وحيداً منفرداً خلف النعش . أما شقيقتاى ، نعمات وعطيات ،

فقد بقيتا تنوحان وتلطمان الخدود وهما متدليتان من النوافذ . رأيت أكثر المشيعين يتطلعون إلى وجوههما ونهودهما من أطراف العيون . فى تلك اللحظة استفقت، وأدركت أننى أصبحت رب أسرة . أية أسرة ! فتاتان جميلتان . نعم جميلتان ، وإن لم تصح شهادتى . ليس لهما غيرى . قوّمت من ظهرى المنحنى ، وسرت رافع الرأس ، وتقبلت — على القبر — دون ثورة أو غضب وكره ، عبارات التشجيع والعزاء، والتوصية بالصبر والرجولة .

* * *

ثم مرت الأيام ، ودرج النسيان بأذياله على الماضى وأهله ، وإذا بى فى صحبة شقيقتىّ من أهنأ الناس . ثلاثتنا فى مقتبل الشباب ورونقه ، فى مرحه ونزقه ، فى جريه وقفزه ، فى عطره ونضرته : تساوٍ طليق ، لا تضغطه شيخوخة مولية ، ولا تأخذ بخناقه طفولة هاجمة . من حسن الحظ أننا لم نكن فى سعة تكفى للإنفاق على ثلاثتنا ، فقدم الصبى وحجزت البنتان فى الدار . وكذلك نجاهما الله من الجامعة بآدابها وفلسفتها ، وسلم لهما عقل غير ملتو يضل فى الفضاء، وطبع غير متكلف . كل منهما نمت أنثى جسماً وعقلا . لا يعكر حديثنا نقاش أو جدال . صحبة

لم يترك لى صفاؤها مطمعاً . . . فمن مثلى من الرجال تحوطه فتاتان ــ لا فتاة واحدة ــ بكل ما وسعهما من عناية وإخلاص؟ لا تقل ملابسى هنداماً ولا أكلى جودة عن زملائى المتزوجين، دون أن أدفع ثمن هذه النعمة بالكدر والهم والضيق الذى أتبينه على وجوههم كل صباح فى المكتب . . . كانت نفسى قانعة وجسمى سعيد . نعيش متلاصقين كصغار القطط وهن عُمى . حلقتنا كاملة : هذه نعمات لبسها دور الأم الحنون فلبسته . هى أكثرنا رزانة واتزاناً . فى يدها مصروف البيت وتدبير خزينه . وبقيت عطيات « دلوعتنا الشعنونة » التى من أجلها نحرص ــ فى خفية منها ــ على تذكر أقل رغبة لها ترد عرضاً فى سياق حديثها ، وننتظر إلى أن تحين الفرصة ، فنجد أكبر اللذة فى تعب البحث عن طلبتها ، وفى التحايل على كتمان أمرها ، إلى أن تعثر عليها فى تمام مناسبتها ، فنضحك معها لدهشتها ، ونشاركها الفرح بهديتنا . . . وفى بعض الأحيان أضع رأسى على ركبة عطيات ، فتعبث بأصابعها الطويلة فى شعرى ، كأم القرد تفلّى رأسه وتناغيه . . . بجانبنا نعمات تغمرنا بابتساماتها الحلوة، وهى تخيط لى بعض ملابسى الداخلية . لو تركنا لأنفسنا لعشنا

سعداء فى هناء يكمل بعضنا بعضاً. ولكن كيف يتأتى ذلك ، وفى الناس إخلاص ومحبة ورغبة فى مساعدة الغير ، وتطوع لعمل الخير والتحريض عليه ! !

بدأ أقاربى ومعارفى يهمسون لى : « متى تزوج أختيك ؟ لقد آن الأوان ! » . ثم فى مرة أخرى : « كيف تأمل أن تعثر لهما على زوج صالح ، وأنت قابع فى داركم القديمة المختبئة بدرب الحجر من وراء حارة التمساح لا تزور ولا تزار . . . أم تراك معتمداً على الخاطبة ومقالبها ؟ »

أخذت وأنا خائف أتطلع إلى عيون شقيقتى على غفلة منهما وأسأل نفسى :

— هل هذه عيون ظامئة جائعة ؟

خيّل إلىّ فى بعض الأحيان أن نظرتهما الناطقة تخرس فجأة وتشرد فى الفضاء ، وأن تحت وشى هذه النظرات الجميلة يختبىء قزم من الحزن والحرمان : له عين البوم ، وأسنان الفأر ، وعناد الثور ونزق الجدى . . . أيها الشيطان الأسود ! مهما تراوغ فلن تخفى علىّ بعد الآن !

سهرت الليل أفكر . وأنار الفجر ظلام الليل وبصيرتى .

فاستبانت لى الحقيقة على ضوء النهار ، جسداً عارماً قبيحاً عارياً قوى العضلات . لا فائدة من مغالطة الطبيعة . ولابد من التضحية وتحمل الوحدة ، والصبر على مرارة التسليم والانسحاب... رسمت لنفسى برنامجاً ، وصممت على تنفيذه دون استشارة أحد ، حتى شقيقتىّ . لن ألجأ إلى الأقارب ، فهم – كما يقول المثل – عقارب ، ولا إلى الخاطبة ، فهى سمسار بين عجزة . أليست المشكلة أن الزوج الصالح لم يأت إلينا ؟ إذاً فلنبحث عنه ، ولنذهب إليه ، وفى موطنه ، ولو أدى الأمر إلى اصطياده احتيالا . سأعد الشبكة الماكرة بنفسى ، وألقيها فى طريقه بيدى . هذا صيد حلال . وأى شىء أعظم ثواباً عند الله من تدبير زوج صالح لأعز الناس علىّ ؟

بعت بعض الحلى ، وسحبت كل نقودى المودعة بصندوق التوفير ، وأجرت شقة كالحُق – ولكنها غالية علىّ ! – فى جاردن ستى ، واشتريت لها بعض الأثاث من معارض سليمان باشا . عن إذنك يا درب الحجر ! لقد ألغى الرق فأعتقينا لوجه الله ! وأنت أيتها الصناديق والشكمجيات ، وأنت أيتها الشمعدانات والمرايا المذهبة ، وأنت أيتها الكنبات والمقاعد المطعمة

بالصدف ، منك إلى صالة المزاد خطوة مباركة ! وداعاً ، وداعاً . فنحن فى دار كل مقام فيها قصير ، وكل صحبة إلى فراق . أتنتظرين أن أرثيك بدمعة ؟ من تلفت إلى الماضى لم تكفه دموع الخنساء ! أتسألينا البكاء ؟ بل اسألينا النسيان ، والنسيان السريع .

ولما دخلت العمارة ، قام لنا بوابها : بربرى له وقار القديسين وهيبة الأباطرة . ولما دلفت إلى المصعد بعد سلالم قليلة فرشت بالبساط وزينت بأصص الزهر ، ولما سمعت الوكيل يقول ! « هنا الأنتريه،وهنا الأوفيس » — اطمأن قلبى ، وقلت : قد أحكمت الشبكة ، فلننتظر صابرين ، وعلى الله توكلنا . . .

* * *

عشنا غرباء زمناً ، ثم بدأنا نألف الحى وأصواته ، ووجوه سكانه وعاداتهم . خرجت من الشقة ذات صباح فإذا بى أواجه صاحب الشقة المقابلة خارجاً بدوره. واحتوانا المصعد معاً . لا أدرى لماذا اطمأن قلبى إليه . ابتسامة منى — وكنت أنا البادئ ، وابتسامة منه ، وصلت الحديث بيننا . هو موظف كبير ، على المعاش . دعوت الله أن يكون له ابن صالح ، أو

ابن أخ ، أو ابن أخت ، أو صديق ، أو معرفة ، وقلت : لعلهم إذا رأوا أخلاقنا وشرفنا ، وخبروا أحوالنا واستقامتنا ، تقدموا بالخطبة . دعوته لزيارتنا ، فإذا به – لشدة دهشتى – يقبل بسهولة . جاء وزوجته ، سيدة نصَف ، حنت على أختى حنو الأم الرءوم : دعتنا لشرب الشاى عندهم وقالت وهى تنصرف :

– عسى أن تكون ابنتى سنية قد عادت من الإسكندرية فأقدمها إليكم .

حاولت ألا يظهر غمى على وجهى . كنت أنتظر أسماء رجال لا نساء . وقلت فى نفسى : « فلتكن زيارتنا الأولى هى الأخيرة ، فلم أجىء هنا من أجل التزاور مع أسرة ليس لديها رجال » .

وذهبت فى الموعد المضروب ، وأنا متحرج ضيق الصدر .

وجاءت سنية . أيها الناس ! لا تبخلوا علىّ بكرمكم وطيبتكم . أشفقوا على شاب قليل الخبرة والتجربة مثلى ، ولا تبتسموا إذا وصفت لكم اضطرابى أمامها وحيرتى .

ماذا أقول ؟ كان اللقاء هو بدء تاريخ حياتى . ما قبله جاهلية معتمة ، وما بعده نور وإشراق . أحدثها وأسارقها

النظر . وإلا كيف تقوى عيناى العاشيتان على مواجهة هذا الجمال كله ؟ كنت بجانبها كالجرو المبتل يوضع فى الشمس ... ما كنت أدرك قبل رؤيتها أن اللباس من الفنون الجميلة . . . كأن جسدها تمنى فكان ثوبها تحقيق أمنيته ! وكأن الثوب نفسه اشتهى ، فكان هذا الجسد خليلته التى وجد لديها السكينة وطعم الحياة . . . ثوبٌ كم أبدى وكم أخفى ! استدار عليها يكاد يأسرها ، فإذا أسيرته طليقة تتحكم فيه . هابط إلى أن يقف حيث يتأرجح الذيل بين الكتمان والإفصاح . وحذاء تغنيك أناقته عن التساؤل عما يداريه . كل شعرة فى رأسها تسابقت إليها واصطفت راضية بجانب أختها ، أو التفت معها أو من تحتها ، عالمة أنها تشارك فى زينة ، سعيدة ناعمة بالدور الذى رسم لها . لو تهشم هذا الجسد وتفتت ألف كسرة ، لما خُدش جماله . وضحكت فأسمعتنى ضحكة تختصر العمر كله . فيها سذاجة الطفولة ، ومرح الصبا ، ومرارة التجربة . . . فم متهم وعيون بريئة . . . لم تهتم بى كثيراً . وما وجهت إلى غير نظرة أو نظرتين . ومع ذلك عندما انصرفت — وأنا أجرّ رجلىّ جرّاً — كنت شاعراً بتعب من جس دقيق تناول روحى

وجسدى ، بأصابع توهم أنها تمسح وتربت ، وهى تندس وتنقب ... شعرت أننى عـُرّيت ، وقلّبت ظهراً لبطن ، وفحصت واختبرت : قيست قامتى ، وسُبرت . وُزنت وكيّلت . عُركت وعضضت بالأسنان ، ورُنت على الأرض ... حُركت أوتار روحى واستمع لموسيقاها . . . ثم استخرج من مخبئه كتابى الدفين ، فروجعت فى النور صفحاته ، وقرئت سطوره كلمة كلمة . كل هذا والعيون مترددة ، والشفاه مستفهمة . . . ثم أصدرت حكماً لن يكون له نقض ولا إبرام ، إلى آخر حياتها وحياتى .

أيها الناس ! أشفقوا علىّ مرة أخرى : ولا تبتسموا من جديد إذا قلت لكم إننى تعبت حقـًّا ، ولكنى مع ذلك وجدت فى هذا التعب لذة كبرى . . . لم أخش حكمها . بل سرنى أنها تناولتنى بالفحص . كنت كالمريض لا يسعده أمل الشفاء ، بقدر ما يسعده تقلبه بين يدى طبيب مدل ممتنع وراء أجر باهظ . . . انصرفت وأنا لا أزال ألوك فى فمى لذة مذاقها . . . ولما دخلت شقتنا ، حانت منى التفاتة إلى أختىّ ، فقلت فى نفسى — والأسى يملؤها : « ما ينقصهما والله إلا أن تطول الضفيرة ، ويغطى الجورب السميك الركبة . لتبدوا شابتين من الريف . . . من غد إن شاء

الله ،سأعنى بتوجيههما إلى الاعتناء بهندامهما وزينتهما ، وإلا كان فشل برنامجى المرسوم محققاً » .

ولكنى فى غدٍ نسيت كل شىء إلا سنية ! حاولت أن أجد مسوغاً لتكرار الزيارة فلم أوفق ، بل وجدت باب الشقة موصداً فى وجهى . ألأنهم رأوا لعابى يسيل وأنا أحدق فى ابنتهم خلسة ، فرثوا لحالى وأرادوا تجنيبى التعلق بسراب ؟ لما شعرت أنهم يتعمدون صدى زاد هياجى ، فإذا بى — وأنا المعروف باتزانى وأدبى — أفقد كل سيطرة على نفسى ورأيتنى : لشدة دهشتى آتى بحركات وتصرفات لا تصدر إلا عن أطفال أو مجانين . حاولت أن أستعين برشوة الخدم ، فضحكوا منى . تصديت لها فى الطريق . ألقيت أمامها رسائلى . تتبعتها كظلّها . كل هذا وهى لا تتكرم علىّ بكلمة أو بابتسامة . أقسم لكم أننى لا أدرى كم من الزمن مر علىّ وأنا فى هذه الحالة : قد يكون أسبوعاً وقد يكون شهراً . وأخيراً ضاق ذرعى ، وأحسست أن العذاب لوطال لقصفنى الألم ودمر قلبى وقضى على . هجمت عليها ذات يوم وهى سائرة وأمسكتها من ذراعها . لمسة فيها رعشة الغيظ والأمل ، وقلت لها صارخاً :

ــ ماذا تظنين ؟ أجرى وراءك طول العمر ؟ أليس لى عمل فى هذه الدنيا إلا أن أسير فى ركاب حضرتك ؟ العفو ! الآن أريد كلمة واحدة : نعم أو لا .

فنظرت إلىّ وابتسمت . . .

زرت معها معالم القاهرة ، فكأننى سائح يجوس خلال مدينة مجهولة ساحرة لم يكن يعرفها من قبل . . . كنت أتلو كالببغاء قصيدة النيل ، فشرحتها لى سنية بيتاً بيتاً ، وأفهمتنى جمال معانيها ولفتاتها . فى حديقة الحيوان ــ التى طالما زرتها فلم أجد شيئاً ــ كلمتنى لأول مرة ، من وراء أعمدة السجن المؤبدة ، عيون صافية جميلة حزينة ، وشكت إلىّ وحدتها وآلامها . الفضل لسنية ، فى الراحة الكبرى التى شملت نفسى عندما آخيتهم جميعاً . . من زحف منهم أو طار ، أو دب على أربع . . .

قالت لى ذات يوم :

ــ ما العمل إذاً ؟ إن بابا يرفض بتاتاً ، لأنك موظف صغير ، ومرتبك قليل ، ولا يدرى كيف تقوى بهذا المرتب على المعيشة فى جاردن سيتى . . . .

ولما رأتنى مطرق الرأس غمًّا ، أضافت تقول :

ــ ولكن ماما فى صفّى . . .

وكان القرار أن أنتقل إلى مسكنهم ، على أن تذهب نعمات وعطيات للإقامة مع إحدى خالاتى . . .

كلهم قالوا لى إننى ساعة « كتب الكتاب » كنت شارد اللب ، ثم إذا بى فجأة أبتسم ابتسامة خفيفة ، ظنوها من حرج سؤال المأذون الصريح . لا يعلمون أننى ــ ولا أدرى كيف ــ انتبهت إذ ذاك فحسب ، إلى قسوة الفكاهة ، وهى تنطبق علىّ ، فى المثل القائل :

« راح يصطاد . . . اصطادوه . . . »

كن . . .

. . . كان !

« ما معنى هذه الحياة ؟ »

ينخر هذا السؤال كالسوس فى نفس حسين فرغلى كل ليلة وهو خارج من القهوة بعد أن كوموا مقاعدها وأطفأوا أنوارها . يخف إليها قبل الغروب ، فيجد زملاءه المدرسين قد اجتمعوا حول (الطاولة) . ويدور اللعب بينهم — لا ينقطع لحظة واحدة — كالمعارك الحربية فى غليانها وقعقعتها : يتساقى اللاعبون كؤوساً مترعة من رحيق الفوز ومرارة الهزيمة ، فينهلون من وهمها ويسكرون . حسين لا يلعب بل يكتفى بتتبع الحجارة والزهر بشغف كبير . يلتوى رأسه ذات اليمين وذات اليسار ، كعروس ميكانيكية انفلت ضابطها . وهكذا هو أيضاً فى الحياة يعيش على هامشها ، ويلوذ بالشاطىء خوفاً من تيارها . عواطفه موزعة ، تارة مع الغالب ،

وتارة مع المغلوب . فالمحايد المحروم من لذة المشاركة فى الصراع ، يتسلى بمقدرته على الموازنة بالعدل والقصاص . إذا دار الحديث فعن العمل والوظائف والدرجات ، حتى كأنهم الإبل ، يجترون بالليل ما أكلوه بالنهار . . . أى عقل شيطانى تفتقت حيلته عن اختراع هذه الطاولة ؟ هى لعبة ساذجة متشابهة متكررة ، ومع ذلك لا ينقطع سحرها كأنها الحشيش أو الأفيون .

خرج حسين من الجو المكتوم المفعم بالأدخنة والضجيج ، وانطلق إلى الطريق : فوقه سماء القاهرة تكاد الروح ترشفها من فرط صفائها . تناثرت فيها نجوم لامعة وأخرى خابية ، لا يكاد النظر يستوعبها فى مواقعها ، حتى تجد الأذن أن هذه النجوم المبعثرة مختلفات الألوان ينظمها نغم حلو جميل . لكل لون منها نصيب فى إيقاعه ، ولكنه نغم خاف تشعر به الأذن ولا تتبينه ، كأنما هى أيضاً عين . ترى ولا تسمع .

وبدأ حسين سيره إلى شبرا ، وهو حين يشعر بالليل يحجبه عن الأنظار ، يلذ له أن يحتضن أفكاره ، ويختلى بها ، فيسرح ذهنه ، وتعود إليه ذكريات قديمة . عيناه تتكلمان تارة بالسرور وتارة بالحزن . ويهتز رأسه مرة بالعجب ومرة بالحسرة . وقد

يتمتم باسماً . وقد تحدث شفتاه هذه « المصة » الضئيلة التى يعبر بها المصريون عن بعض ما فى قلوبهم من توجع وعطف ورثاء ... آه ! إنه الليلة آسف على حياته، نادم من جديد . أما يأتى اليوم الذى يتاح له فيه أن ينسى كيف ألقى بنفسه فى مدرسة المعلمين وهو كاره لها ؟ وكيف نكص عن الزواج بجارته آمال ! تلك الفتاة التى خلبت لبه وسحرته ، ورضى بالزواج من إحسان.. خشى الأولى لأنها مستبدة لعوب فاتنة ، وقنع بالثانية لا عن حب ، بل قياماً بواجب ، فهى ابنة عمه . . . اطمأن لها لأنها ربة بيت ، هادئة ، معتكفة . فماذا فعلت بنفسك يا حسين ؟ أدرت ظهرك للنشوة والمتعة ، واللذة المتجددة ، والحياة المليئة بالعواطف ، وآثرت حياة راكدة كالمستنقع . سرعان ما مل إحسان ، وسرعان ما انقلبت هذه الفتاة الممشوقة القد إلى امرأة بدينة خشنة اليدين . لم يرها مرة تستقبله عند عودته ، وقد سرّحت شعرها أو اعتنت بزينتها . تبدو له الآن حياته سلسلة من أخطاء وسوء حظ . إن كان فى الحياة مهنة يمقتها أشد المقت فهى مهنة التدريس . هو عامل فرض عليه أن يبنى الأساس ولا يتعداه ، ثم يجىء آخرون يتممون البناء ويتمتعون

به ... أى لذة فى عمل لا تتجسم أمامك نتائجه ، فتمنح النفس جزاءها من الرضا والغبطة ! ؟

ما فائدة التوفر على تعهد الفرخ وتغذيته ، حتى إذا نما ريشه أفلت من يدك وطار ؟ العالم كله يتحرك إلى الأمام ، والمدرس ثابت فى مكانه ! وإن تلفت فإلى الماضى يتلفت . . . ما فائدة تعليم هؤلاء الصبية ، وهو واثق بعجزه عن إسعادهم ؟ فالحياة مليئة بالشراك والمصائد ، محفوفة بالمظالم والآلام والأحزان . سيخوضون غمار معركة من أشد المعارك تطاحناً وهولا ، على حين أنه لم يسلحهم إلا بقشور من العلوم النظرية ، وشقشقة لسان إن لم تكن تضر فهى لا تنفع . كم كان يود أن يكون محامياً . إنه يحس فى نفسه المقدرة على الفهم واستخلاص المبادئ وسلامة المنطق — وهذه مواهب لا تفيده فى صناعة التعليم ، ولكنها خليقة أن تتقدم به إلى الصفوف الأولى ، لو أنه مارس المحاماة . ودّ حسين لو أنه استطاع أن يدافع يوماً عن مظلوم ، أو يرد حقًّا إلى صاحبه . . . ولكنه عاجز . فمما يكرب نفسه أنه يرى المظالم تتزايد أمامه وتتلاحق ، ولا أمل له فى أن يرى نهايتها ، أو يرى عالماً تسوده العدالة . هذا تفسير ما فى نظرته من حزن

عميق مختلط بغيظ مكتوم . . . ماذا يفعل ؟ إنه يقف طول النهار ينبح أمام تلاميذ كالقرود يلهون ويعبثون ، حتى يجف حلقه ويضطرب قلبه . هل نسى أن الطبيب قال له إن قلبك ضعيف يخشى عليه من كثرة الإجهاد ؟

وعندئذ تريث حسين فى سيره ، ووضع يده على مكان قلبه وتأوه . . . إنه يحس كأن إبرة تغرز فيه . . . لقد ساءت حالته الليلة . إنه الإجهاد الذى يخشاه . . . فمتى تأتى الإجازة ؟ متى ؟

كان قد ترك الطريق الرئيسى وانعرج إلى درب ضيق ينتهى بالمزارع . . . سكون شامل ، ومنازل نائمة . . .

حدثته نفسه :

ـ لو أستطيع أن أرتد القهقرى عشر سنوات . . . عشر سنوات حسب . . . ولو ضحيت من أجل ذلك بعشر سنوات مثلها من مستقبل عمرى . . . سنةً بسنة . . .

لم يكد يسير بضع خطوات بعد هذا الخاطر ، حتى خيل إليه أنه يسمع زحيراً شديداً يتلاحق من ورائه . هل يجرى فى إثره أحد ؟ أجهد أذنيه فلم يسمع وقع أقدام . ومع ذلك استمر

هذا الزحير يسرع إليه ويدنو منه . طمأن نفسه يقول لها : لعله وهم وخيال . فالليل عالم مجهول ملىء بأصوات غريبة لا نتبينها . . . ثم سار قليلا . فإذا يد تلمس كتفه ، والزحير يكاد يشق صماخ أذنيه . . . سمع حسين وقرأ أن شعر الرأس يقف عند الذعر ، ولم يكن يصدق . فى تلك اللحظة أحس كأن يداً قاسية جمعت شعره فى قبضتها وشدته شداً قوياً يكاد يتمزق منه جلد رأسه . وشعر حسين بأن اليد التى وقعت على كتفه لوح من الثلج . فقد جمد لها قلبه ، وإن يكن جبينه قد التهب لها وتصبب عرقاً . . .

التفت حسين مذعوراً ، فوجد وراءه رجلا نحيفاً هو إلى القصر أدنى منه إلى الطول — يرتدى ثوباً أسود كثياب التشريفات ، من طراز يرجع إلى عهد غابر ، ذكر حسيناً بصورة قديمة لأحد جدوده . . . والغريب أن هذا الثوب كان فضفاضاً كأنما فُصِّل لرجل أطول منه وأشد امتلاء . . . فقد رأى حسين أمامه رقبة نحيلة تائهة فى بنيقة منشاة واسعة . . . يريد ذقنه أن يعتمد على حافتها فيشنقها فرط ارتفاعها . . . لم ير له يدين ، وخيل إليه أن الكمين فارغان ، ليس فيهما

ذراعان . حدق بنظره فى تقاطيع هذا الغريب : ورأى ــ أو خيل إليه أنه رأى ــ وجهاً إنسانيًّا ذا عينين وأنف وأذنين ... ولكن عجباً ! لماذا لا تستقر نظرته على هذا الوجه ؟ لم تنطبع له صورة فى ذهنه ، كأنما وجهه هوة لولبية ، أو سراديب ملتوية ، أو صورة فوتوغرافية مهزوزة . . .

أشاح حسين بوجهه من الرعب ، ومن تلك الرائحة المنتنة القاسية التى غمرت وجهه من فم هذا الغريب . وحين بدأ الرجل يكلمه ، إذا صوته صوت طفل وديع ، وإذا هذا الصوت الحنون وحده يراخى قبضة اليد التى كانت تجذب شعره فيعود إلى رقاده . . . وخامر قلبه شىء من الطمأنينة لم يدر سببها . قال له الرجل :

ــ لا مؤاخذة يا سى حسين . . . خشيت أن تغير فكرك قبل أن أستطيع اللحاق بك . كنت مشغولا جدًّا فى القصر العينى وفى مستشفى الحميات... فأنا ــ كما ترى ــ مجهد حقًّا ، ولى عمل شاق لا ينتهى . . . سمعتك تتبرع بعشر سنوات من عمرك لقاء أن تعود القهقرى عشر سنوات مثلها ، وأنا فى ضيق علم الله ــ ومحتاج أشد الاحتياج إلى يوم ، فكيف بعشر سنوات مرة واحدة .

ـ لا شك أنك سعيد فى حياتك . فلم أر قبلك أحداً يتعلق بالدنيا تعلقك بها . . .

ـ لا . لا . لا أريدها لنفسى ، بل لغيرى . . . دعنى أتذكر . نعم . عندى أب قارب الرحيل ،وقد قدر له أن يرى ابنه الوحيد الشاب يموت قبله . سأعطى الابن شيئاً من هبتك حتى أجنب أباه تجرع غصة الألم . وهذا الشاب لو انتقل عن هذه الدنيا لحرم أولاده من ميراث جدهم . سأعطيه سنة حتى ينتهى أجل أبيه . . . وهذا الفتى أحب فتاة غاية الحب ، سيموت قبل الزفاف ـ وليس أشهى علىّ من أن أمتعه بها ولو شهراً واحداً . فها أنت ذا ترى أن هبتك السخية تكفى لبعض هذه الأعمال الخيرية . . . لهذا أسرعت إليك . . .

خفت الأبخرة المنتنة شيئاً فشيئاً . . . واستطاع حسين أن يقارب وجه هذا الغرّيب . . . بل بلغ به الاطمئنان أن ضحك فى وجهه وقال :

ـ مهلا ! مهلا ! هذه هبة كما قلت ، ولكنها ـ ياعزيزى الأستاذ ـ ليست بدون مقابل . . . فهل أنت قادر على أن تردنى القهقرى عشر سنوات ؟

انتبه حسين إلى أن جواً من الطيب والرائحة الذكية تسطع من مخاطبه . . . وتمنى لو استطاع أن يقترب منه أو يضع ذراعه فى ذراعه . . .

أجابه الرجل وهو يبتسم :

— ألم تقرأ فى القرآن الكريم « ادعونى أستجب لكم » ؟ إننى عبد من عباد الله لا أعلم أن أحداً قد كلف بمهمة شاقة كمهمتى . . . وأنا مقبل على أدائها بإخلاص وبكل قوتى . . حرصاً على رضى مولاى . . . وأبى لحسن الظن بكرمه ومنّه . . . لم ألتمس منه طلباً من قبل . . . فلا أظن أنه يخيب رجائى لو سألته هذه المرة . . . كن واثقاً أننى أحقق لك ما ترجوه ...

ود حسين لو أنه تردد قليلا ، أو سأله مهلة ليفكر من جديد . . ولكنه خجل من رقة محدثه ، فوجد نفسه يقول له وهو ذاهل . . .

— لا مانع عندى . . .

— يا لك من سخى شجاع . . .

وعندئذ أخرج حسين ساعته ونظر إليها فأوقفه الرجل قائلا :

— لا . لا . إننى لا أعرف حساب زمنكم هذا . . .

ثم التفت إلى السماء ونظر إلى النجوم وقال :

ـ سيكون بدء تنفيذ اتفاقنا فى تمام منتصف الليل .

قال له حسين :

ـ اتفقنا . . .

أجابه الرجل :

ـ هذا القول لا يكفينى . . . إننى أريد منك أن تهبنى السنوات العشر بالصيغة الشرعية . فقل معى :

« أهبك عشر سنوات من عمرى طائعاً مختاراً ، وأنا فى تمام عقلى وإرادتى ، على أن أعود القهقرى عشر سنوات مثلها » .

كرّر حسين وراءه الصيغة كلمة كلمة . . . فإذا بالرجل يربت على كتفه ويقول :

ـ « إنك أكبر المحسنين لو علمت . وليس أحد أولى منك بأن يقام له تمثال » . . . ثم ابتعد عنه ، يتحرك جسده ، ولا يرى حسين على أى قدمين يسير . . .

واستمر حسين فى طريقه وهو ثمل لا يدرى هل يغتبط بفعلته أم يندم عليها . همس لنفسه يقول : « إنك أسعد إنسان على وجه الأرض ! ستقوم برحلة لم تتسن لأحد من قبلك » .

وفجأة وقف حائراً وقال :

ــ ولكنى نسيت أن أسأله هل سأعود القهقرى عشر سنوات محتفظاً بما فىّ من تجارب وأفكار ومن خبرة ومزاج . . . ليتنى أدخلت هذا الشرط فى اتفاقنا !

عشر سنوات إلى الوراء ! سيغير حياته كلها . . . سينعم بما حرم نفسه منه . . . سيتجنب كل أخطائه . تألق وجهه وأسرعت خطواته ، وأحس أن نشوة غريبة تهز عطفيه . . . فإذا به يقف من جديد وقد ساوره شيء من القلق :

ــ ليتنى سألته كم يبقى لى من العمر بعد تبرعى بعشر سنوات ؟

كان قد وصل إلى داره وفتح باب الشقة، فإذا رائحة المرحاض تزكم أنفه مختلطة بعفونة قشور البصل المتخلف فى صفيحة القمامة .

اعتاد حسين، إذا عاد فى مثل هذه الساعة، أن يجد شيئاً من الطعام على المائدة فيتناوله بارداً وهو صامت ، وزوجه نائمة لا تتحرك . . . ولكنه فى هذه المرة لم يكد يدخل حتى سمع صوت إحسان تنادى :

ــ من ؟ حسين ؟

وقامت إليه محمرة العينين ، مشعثة الشعر تقول :

ـ عجباً ! ما كدت تدخل حتى طار النوم من عيني ، وانتبهت مذعورة لا أدري ماذا بي .

جلست معه على المائدة وسخنت له طعامه ، وحدثته عن بعض توافه يومها ، ومع ذلك كان كلامها ينزل برداً وسلاماً على قلبه . . . هي زوجه ، وليس في حياتها أحد سواه . حبيسة داره ، حياتها كلها وقف عليه وعلى أولاده . كثيراً ما اشتكت وثارت وضجت ، ولكنه لم يسمعها تؤلمه بكلمة تجرح قلبه . . . حن لها حسين وضاحكها ، بل عرض عليها أن يسهرا معاً ويتسليا بلعب الكونكان . . . وهي لعبة الورق الوحيدة التي استطاع أن يعلمها لإحسان .

واستمر اللعب زمناً طويلا . . . وتناول حسين ورقة يربح بها الدور . . . فرفع يده مسروراً يقول :

ـ كن . . .

ولكنه لم يستطع أن يتمها (كونكان !) كان الليل قد انتصف . . . .

دخل عليه وكيل المكتب يقول :

ـــ السمسار منتظر يريد أجره .

أطرق حسين برأسه ذليلا . لقد انحدرت به الحال إلى أن أطلق بعض السماسرة يتصيدون له الزبائن من على القهاوى . . . لم يبلغ إيراده فى هذا الشهر عشرين جنيهاً . وإنه والله ليخشى أن يعود إلى داره ، فقد طالبته آمال بثوب جديد لا يقدر عليه . . . من كان يظن أن فتنة هذه الفتاة ستزول سريعاً ؟ عاشرها وتمتع بقربها ، ولكنه يشعر أنه ظل طول عمره غريباً عنها . لا يدرى ما يجول برأسها . . . يريد أن يخضعها فلا تخضع ، ويأمرها فتنفلت منه طليقة . . . ثم كم تؤذيه ويؤذيها بهذه الكلمات القاسية الجارحة التى يتبادلانها كثيراً . . . ثم ـــ وهنا العجب ـــ يضمهما الفراش فينسيان كل شىء فى ضمة الجسد للجسد . وتعود العداوة والبغضاء فى الصباح . . . طبيعة حيوانية يتعامى الإنسان عنها ويتعالى ، وهو عاجز فى قبضتها ، غريق فى أحضانها . ترى أين إحسان الآن ؟ ألم يكن أولى بها ـــ وهى ابنة عمه ـــ من زوجها العامىّ الذى لا يحسن معاملتها ؟ ألم تكن راحته وسعادته فى الزواج منها ؟ ولكنه تكبر وخان ، وجرى إلى آمال كالأحمق . . .

وسار حسين على مهل إلى داره . . . المحاماة ؟ هى مهنة مليئة بالكذب والخداع . كم يتألم ضميره وهو يصرخ أمام القاضى بكلام يعلم من قرارة نفسه أنه كذب وتلفيق . . . كل ذلك لقاء دراهم معدودة لا تسمن ولا تغنى من جوع . . .

آه ! آه ! إنه أضاع حياته . وما فائدة جهاده فى المحاماة والناس كالوحوش الضارية والذئاب المفترسة ؟ إن اكتسى وجه الظالم بغلالة سوداء بغيضة ، فما أجدر المظلوم الأنوف بأن يرفع رأسه ويتجلى وجهه أبيض وضيئاً . . . ولكن حسين يتطلع إلى وجوه زبائنه فلا يتبين الظالم من المظلوم . . . كل منهم تنطوى نفسه على الغلّ والحقد . لا يكتفى الظالم بجبروته ، بل يهبط به جُبنه إلى الدس والكيد والتلفيق . . . وعمى المظلوم عن نبل المطالبة بحقه وثوابها ، وامتلأت نفسه سُماً . لا يرضيها استرداد الحق ، بل الانتقام بأى ثمن من الخصم — ولو ظلماً ! كم كان يود أن لو اشتغل بالتعليم ، لتكون براءة الطفولة الساذجة هى مادة عمله ، وليساهم فى بناء جيل صالح ينشأ على الأخلاق الفاضلة ، تبدأ به مصر حياة جديدة . . . وهل هناك أنبل من وقفة المعلم أمام صف من الصبيان ، يتطلعون بعيونهم المتعطشة إلى

كل حركة تصدر منه ، وكل كلمة تخرج من فمه ؟ هذا هو البناء الذى يرضى النفس . وأى مهنة أخرى تهيىء لصاحبها مثل هذه المتعة الروحية ؟ أما الآن فإنه يجاهد فى المحاماة جهاداً زائفاً مضيَّعاً . . . أحقًّا إنه يعمل لرد الحقوق إلى أصحابها ؟ إن صح هذا — وهو غير صحيح — فما فائدة تعمير البناء والأساس فاسد مختل ؟ إنه يحس فى نفسه القدرة على الصبر والتؤدة والتبسيط . وهذه صفات تؤخره فى المحاماة ، ولكنها خليقة أن تدفع به إلى الصفوف الأولى لو أنه مارس التعليم .

قابلته آمال غاضبة تقول :

— لا أراك إلا والليل متقدم . . . وما أظنك غبت فى هذا المكتب المبارك وهو أفرغ من فؤاد أم موسى . . . أكبر الظن أنك كنت مع صحبة السوء فى لهو وعبث .

— كيف أرضيك يا آمال ؟ ألا ترينى متعباً ؟

وضع حسين يده على قلبه وتنهد .

— إن الأزواج ليرجعون إلى البيت فيحدثون أزواجهم ويلاطفونهن ويتسلون معهن . . .

— وماذا تريدين ؟

لَوَتْ خرطومها وتركته

سار وراءها ذليلا يقول :

ــ آمال ! تعالىْ . تعالىْ نلعب الكونكان معاً، فأنا مهموم أريد أن أتسلى . . .

بلغ من ضعفه بين يديها أنه لا يجسر أن يمن عليها بما يفعله لإرضائها . . . فكل خدمة منه لها يصورها خدمة منها له . . .

واستمر اللعب زمناً ، وتناول حسين ورقة يربح بها الدور . فرفع يده بها مسروراً يقول :

ــ كن . . .

ولكنه لم يستطع أن يتمها « كونكان »

انشق الجدار وخرج إليه منه رجل غريب ، ولكنه ليس بالغريب عنه . هو أقرب إلى القصر منه إلى الطول . مال بوجهه الذكيّ الرائحة على حسين يقول :

ــ يا سى حسين ! هل أنت ذاكر ؟ لقد نفذت عهدى من الاتفاق . أليس كذلك ؟

ابتسم له حسين ابتسامة ملؤها الاطمئنان والود والإخاء وقال :

ــ تمم حديثك ولا تخف عنى شيئاً . أكاد أفهم الآن

كل ما كان غامضاً عليّ . . .

ــ نسيت أن أخبرك فى ساعة اتفاقنا أنه لم يكن لك عندئذ من بقية العمرِ أكثر من تلك السنوات العشر التى تبرعت بها... فهل أنت مستعد ؟

أسبل حسين جفنيه ، وخفق قلبه ، ومال عليه وجه سمح منزعج يقول :

ــ حسين ! حسين ! ما بك ؟

ــ من أنت ؟

ــ أنا إحسان ! ألا تعرفنى ؟ لقد كنت أمامى منذ لحظة سليما معافى . فماذا بك ؟ هل يؤلمك شىء ؟ رد علي ! أأدعو الطبيب ؟

ولكنه كان قد فارق الحياة ، وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة . ووقفت أمامه إحسان ذاهلة لا تقوى على تفسير ما حدث كيف حدث ! !

القديس لا يحار

تحلّل القديس من قيود الوطن والأهل والأصدقاء، ورحل يبلغ رسالته للناس ، يبين لهم باطل الدنيا ودنس المال ، ويدعوهم إلى اللحاق به فى هجرته إلى الله وحده ، لا يملك شيئاً ولا يستقر فى مكان .

وسار وراءه نفر من أتباعه . رجال جاوزوا سن الثورة والاستهتار ، خُشُن الجلد والملبس ، إذا نزلوا بلداً سهل إيواؤهم وإطعامهم . . . وتشييعهم . ولو لم يتبعوه لظلوا أمام بيوتهم يصطلون الشمس طول النهار . ولكن من هذا الشاب الجميل الذى يسير فى مؤخرة الموكب : مديد القامة، عليه سمة النبل ، متئد الخطوة كأنه متبوع لا تابع . ما أصفى بياض يديه ورخاصة أنامله ، يشد بها حافتى مسوحه، فكأنها مشبك من الأحجار الكريمة . . . من يكون ؟ ولماذا يسير مطرق الرأس ؟

إنه النبيل « ع » الابن الأصغر لسيد مقاطعة نائية . تربى فى كنف العز وعاشر السعداء ، ولم تقع عينه على بؤس .

ولما مات الأب وورث الابن الأكبر لقبه وضياعه . دعا أخاه المدلل وقال له :

– لا أريد أن أصبح مميزاً عنك فأنفرد بالخير كله ، ومقامك فى قلب أبى الكريم كان فوق مقامى ، فإن شئت عشنا معاً لك مالى ، وإن شئت اقتسمنا التركة بالتساوى .

فأطرق النبيل « ع » برأسه ، ولم يجب . غادر القصر واعتكف فى كوخ صغير أياماً طويلة ، خرج بعدها يعلن لمن حوله أن هاتفاً هتف به بين اليقظة والمنام يدعوه أن التحق بالقديس . فلما ترامى الخبر إلى الناس عدوها كبرى معجزاته ، وأكبروا فى النبيل نزوله عن الغنى والعز العريض ، واختياره التكفف وسؤال الناس كسرة الخبز فى سبيل الله .

طارت شهرة الأمير النبيل بين الناس ، وتزاحموا حول الموكب لا ليروا القديس ، فهم لا يجهلونه ، بل ليتطلعوا إلى النبيل الوسيم كيف يبدو فى ثياب الراهب . ينصرف الرجال عن الموكب وهم أرضى نفسا وأهنأ بطعامهم وشرابهم : أما الأمهات والجدات فكن يسبحن لله الذى سبقت إرادته ، فاختار هذا الوليد لحياة كلها حرمان وقسوة ، وما كان أجدر شبابه بالتمتع واللعب . أما الفتيات

فكن إذا رأين يده الناعمة الرخصة فوق المسوح الخشنة ، وتطلعن إلى وجه الشاب الذى أصبح مناله صعباً بل حراماً ، شعرن بقشعريرة تسرى فى أجسادهن ، وركعن على الأرض يتمتمن بدعواتهن، ولكن أحداً لم يفلح فى أن يرى عينيه . . . لماذا هو مطرق ؟ ولماذا يسير فى مؤخرة الموكب ، ولو شاء لكان فى أول الصفوف ؟ ليس بينه وبين القديس إلا خطوة واحدة .

وفى يوم مر القديس وحاشيته على قصر منيف ، فسأل عن صاحبه ،فقيل له إنه لثرى عظيم لا هم له إلا اكتناز المال ، ولم يسمع عنه فى يوم أنه أحسن بدرهم . فعدل القديس عن مواصلة سيره ،ودخل القصر ليهدم منه للشيطان معقلا ، ويظفر بتخليص أرواح ساكنيه . فوجد الثرىّ جالساً أمام مائدته ، تتكدس عليها الأطباق والأقداح ، عن يمينه زوجه ، وعن يساره ابنته ، وأمامه أولاده ، ومن حواليه أتباع وحشم يتطلعون لشفتيه ، لعلهما تنبسان بأمر .

امتلأت الردهة بالأصوات ، ولكن الضجة لم تمنع النبيل — ولعل إطراقه ساعده على إجادة السمع — من أن ينتبه لضحكة رقيقة تحاول صاحبتها كتمانها فلا تقوى . . . هل مبعثها سرور

أو دهشة ؟ أم هى سخرية ؟ رفع رأسه فوجد ابنة الثرى تتطلع إليه بعيون ندية كلها أضواء . . . ورأى كيف تحتال حتى جاء مقعده إلى جوارها .

وتفجر القديس يلوم ، وكأن روحه ترمى بالشرر ، ثم يعظ ، فكأن قلبه يفيض بالغيث المنهمر . وسحرت بلاغته الحاضرين فتقاربت الوجوه وتشابهت السحن ، فما يميز بين السادة والخدم .

واختلت الفتاة بالنبيل ، وجرى بينهما حديث خافت :

ــ لو أنك مررت علينا من قبل ، لحطت لك هذا المسح على قدك ، فإننى أشفق عليك وأنت تتعثر فى أذياله ، وتتيه ذراعاك فى أكمامه ، فقل لى بالله عليك كيف تحتمله ؟

ــ لا يكربك الأمر ! فلست دالفاً إلى مرقص، بل ساعياً إلى رب ينظر إلى القلوب لا إلى الأثواب .

ــ ويلى إذاً ! لقد كنت أظن الرقص عبادة ؛ فما رقصت مرة إلا شعرت أننى أقرب إلى الله منى فى أوقات الفراغ والسأم .

وهنا وجد الشاب نفسه أسير نظرة فاحصة ماكرة هازئة ، كلها عطف وفهم ، فيها بريق عين النهم وهو جائع مقبل على

أشهى أطعمة ، وأضواء لمحة الحبيبة إذا ما شفى الحبيب غلتها .

جرحه نفوذ النظرة إلى قلبه فانقبض ، ولكنه استراح ، لعلمه أنه لو شاء لكان سلطانه على الفتاة أقوى من سلطانها عليه .

فأجابها قاصداً هدايتها ، كأنه لم يغضب ولم يبال :

ــ وما بعد الرقص ؟ ألا تفكرين فى أن كل هذا سراب ، وأن هناك موسيقى غير موسيقاكم ؟ اللهم إن كلى آذان لسماع أناشيد التسابيح بحمدك ، الصاعدة من الكون ، المدوية فى الفضاء ، فأسألك اللهم أن تجعل من قسمتى سماعها !

ــ إن الله قد أغدق نعماءه على الكون ، ولم يحرم منها إنساناً له قلب وبصر ، فذهابك الآن تقرع باب الله دليل على أنك عشت إلى اليوم غافلا عن جماله . وهذا ماض سيعقد لك فى مستقبلك وإن جاهدت . خذها عنى : إن الله لا يحب من عباده السائل اللحوح اللجوج ، ولا من يستعين للوصول إليه بمسبحة طولها أمتار . . . ثم مالت الفتاة على أذنه تقول :

ــ هلم اعترف أنك فهمت أننى أعلم لماذا ارتديت المسوح . أنت طموح ، مبدؤك إما الكل وإما العدم . تركت الثروة لأنها نصف ، والدنيا لأن كل لذة فيها تنقضى ، فإذا هى تقصر

عن حد تتخيله ، وتسير فى مؤخرة الصفوف لأنك لست على رأسها . ولو وقفت بين يدى الله لسألته : ما وراءك ؟ فتواضعك هو الكبرياء ، وزهدك هو غاية الطموح . إننى أعلم أنك نشأت يتيم الأم ، ولو عاشت لوجدت فى عطفها ما يرطب قلبك : وما أشبهه الآن بصخرة فى أعلى الجبل . . . ومع ذلك لم يفقد الأمل فيك . لقد اخترتك لنفسى ، فابق : انظر إلى ، وتمتع بجمالى . ستعلمك قوة حبى كيف تؤمن أولا بإنسانيتك ، ليصح إيمانك بعدها بالله . إن لأبى جماعة من مهرة الموسيقيين ، إذا وقعوا على آلاتهم أرقصوا الجماد. سأجعلهم يعزفون إذا أذن رئيسكم ، ولا أظنه يرفض ، وإلا لما كان قديساً — فماذا عليك لو خلعت المسوح وارتديت أبهى الأثواب ، فقمت إلى وانحنيت أمامى ، وتناولت يدى ، ودارت ذراعك حول وسطى ، وضممتنى إلى صدرك ، ورقصنا فتمثلت النغمة فى حركاتنا ، ثم انفلتُّ عنك وأنا أخبر بك وأنت أدرى بى . . . وسترى أنه لا يزال هناك أمل .

انهدّ كل شىء من حوله . لو أنه أطاع وسواسه لهوت يده عليها بشدها من شعرها ، ويجرها على الأرض ، ولداسها بقدميه

أو لمال عليها يغمرها بقبلاته ، ولكنه خطا خطوة ليس عنها نكوص ، ولو نكث لما صدقه من بعد ذلك أحد ، ولا صدق هو نفسه . ولقد بقى فى أذنه من كلام الفتاة لفظ (الأمل) . إنه سيظل حيث هو ، جاهداً فى طريقه ، محتملا ما لا تقوى على احتماله الجبال ، آملا أنه سيرى فى النهاية بارقة الرضا فى وجه ربه الكريم . . . ولكن الآن ! الآن ! الحياة كلها أمامه فى متناول يده . آلاف الأصوات تناديه : أقبل ! اشرب ! إننى عطشى .

وكان القديس لا يزال يعظ ، ورويداً رويداً طأطأت الرؤوس على الصدور ، وتصاعدت الآهات . وانفجرت الدموع ، وركع الجميع أمام القديس ، يلثم رداءه من لم يستطع الوصول إلى يديه المرفوعتين إلى السماء .

وترك الثرى مائدته ، وقف يقول للقديس بصوت يغالبه البكاء :

— أسلمت قيادى إليك . فأنا منذ اليوم من أتباعك . سأترك القصر وما فيه من متاع وما حوله من ضياع . سأترك مخازنى ، بعتيق شرابها ، والحقل بعجيج دوابه . سأتبعك كظلك . ولن أكون وحدى ، بل سيتبعنى أيضاً كل هؤلاء : زوجى ،

وأبنائى وزوجاتهم ، وبناتى وأزواجهن ، والأصهار والأتباع . أرنا الطريق ونحن فى أثرك .

لم يحر القديس جواباً ، لم يتعقد جبينه ، فهو وضاء منير . ولم يزم شفتيه ، فابتسامته الجميلة هى هى ، ولكنه غائب عن الجمع ، نظرته تائهة ، لعله يستمع إلى وحى خفى يقول :

— لو تبعوك لخرب القصر ، وبارت الأرض ، ونفقت الدواب . ومن أين لك إطعامهم وإيواؤهم وإيجاد عمل لهذا الجيش العرمرم؟ هل يتكففون الناس مثلك؟ والقديس من الواصلين الذين يستند إيمانهم على صخر لا يتزعزع ، لا يعرف الشك ولا الريبة والتهكم . لم يثر فى قرارة نفسه ولم يقل : « إذاً ما حكمة رسالتى ؟ وما قيمة المبدأ الذى خرجت أبشر به ؟ وكيف يكون الكيل كيلين والصاع صاعين؟ وإن كان ما يصح لى هو الحق ، فلابد من أنه يصح للناس أجمعين » .

لم ينقص إيمان القديس ذرة ، ولم يهتز لحظة . فكيف يكون قديساً إذا بدت له المسائل كما تبدو لبقية الناس — متناقضة مضطربة ، مضحكة مبكية ؟ لهؤلاء القديسين نظرة تشمل الكون وتفهم الأسرار . فما يبدو عجيباً هو ذات الحكمة ، وما يبدو

متناقضاً هو عين الاتساق . قال القديس بصوت كأنه يخرج من كهف عميق :

— يا بنى ! احمد الله أن هداك أنت ومن معك للحق . . . على يدىّ ! إن الطريق الذى تريد أن تسلكه وعر ، لا يقوى عليه إلا القديسون أمثالى . فامكث مكانك وأقبل على عملك ، واسكن إلى زوجك ، وداعب أولادك وبناتك ، وأشرف على شؤون خدمك وحشمك ، وحقولك وضياعك ، وتمتع بأكلك وشربك ، على أن تعدنى أن تفعل الخير وتذكر الله . تمثله لنفسك فى كل لحظة ، حتى تعلم أن كل ما حولك زائل ، وأنك ملاق ربك فمحاسبك حساباً لا يضيع فيه مثقال ذرة من خير أو شر.

بدا الوجوم على وجه النبيل وكأنه لم يفهم شيئاً . فاستمر القديس يقول :

— لا تحزن . إنك ستمكث فى القصر — فى نظرك — ولكنك ستكون مع ذلك من أتباعى . ما قيمة التمسك بالذيل واقتفاء الخطوة ، فى حين أن الروح متبلد والذهن غائب ؟ ستتبعنى بروحك ، بإيمانك . . . ولك على أننى لن أنساك فى يوم . فلن يغيب عنك ندائى ، بل سأحمل شخصك فى قرارة

قلبي . سأنشئ لك ولأمثالك طريقة خاصة بكم تلتحقون بها ، فتربطني وإياكم .

وعادت الردهة إلى هرجها ومرجها ، ودبت فيها روح البهجة ، ودارت الأطباق والأكواب ، وسكن الثرى إلى زوجه ، وداعب أولاده وبناته ، ونادى كلبه الأمين فأقعى تحت قدميه .

والتفت النبيل (ع) فوجد الفتاة عن يمينه ، والقديس يهم بالانصراف عن يساره .. . ولكن هاتفاً هتف به ، فإذا هو يتمتم لنفسه : نعم ! لا تيأس من رحمة الله .

فجمع أطراف مسوحه ، وجرى إلى الجمع ، واتخذ مكانه بينهم ، لا فى آخر الصفوف هذه المرة ، بل وراء القديس كأنه يلوذ به . وتحرك الجمع يرددون وراء القديس قوله :

« اتركوا الباطل الزائل واتبعونى ! »

وقفت الفتاة صامتة برهة ، ثم همست تقول :

ـــ يا له من غر مسكين لم يفهم الوحى . لما نادته رحمة الله أن ابق ، فإذا به يولى عنها وينصرف !

ثم ضربت الأرض بقدمها وصفقت تقول :

ـــ موسيقى ! رقص !

بيني وبينك . . .

كم من مرة قطعت فيها هذا الطريق معك ! ذراعك فى ذراعى ، فما شعرت أطويل طريقنا أم قصير ؟ أفى يومنا المسير أم فى غد لم يأتِ بعد ؟ أم هو فى ماض من العمر قد ولى وفات .

كان الطريق هو الذى يقبل الىّ . يأخذ بيدى ، ويرينى اتصاله بالأفق ، بالسماء ، بالأفلاك . . . على جانبيه دور هادئة المأوى كصدور الحاضنات ، ويمر بنا أناس كل منهم شعاع من نور الله . . .

أما الآن ، بعد اختفائك ، فهذا الطريق بعينه أقطعه وحدى فلا ينتهى . المسير سخرة ، والأفق قيد ، والسماء غطاء ، والنجوم ترمق الأرض شزراً . . . الدور سجون ، والناس أطياف ذاهلة لا تدرى ما القدر ، وإن شكتْ كفرت . . .

* * *

ما رأيت عاملا فى ترام أو فى متجر أو فى مقهى إلا سلم عليك سلام الترحيب والإعزاز ، فالحياة المتدفقة من روحك تمسح عن النفوس جميعها صدأ الألم والحزن ، وتنفض عن الوجوه رماد البؤس والشقاء .

وأنتِ ، لا تستقر نظرتك على وجه واحد ولا تتريث . . . تهبين ، وما تقدرين أى مال تنثرين ؟ أفأنت عمياء كأمك الغريزة وأبيك الحظ ؟ . . .

* * *

السينما مزدحمة وأنت لا تعبئين بأحد . المشهد مؤثر ، والناس يبكون ، وأنت ضاحكة :

ــ أأبكى من خيال ؟

يا أختاه ! لا بكيت أيضاً ، من حقيقة ما عشت ، . . .

ومن يدرى ! لعلك قد انصرفت عنى يوم اختفائك عابثة تقولين :

ــ أأبكى من خيال ؟

* * *

نقلت إلىّ أن خالتك ، أو تلك التى تزعمين أنها خالتك ،

حدثتك عنى بالأمس وقد تركتكما فى العربة :

ـ أهذا الذى تذكرين ؟ إنه ساذج . هو فى يدك كالعجين فلتهنأى به .

ما آلمنى هذا الوصف ، بل رحبت به ورضيت . صدقت نظرتك فىّ أم لم تصدق ، سيان عندى . إن الحب الذى يغمر قلبى هو كل ما أسألك عليه من أجر . فلا يهمنى تصفيق النظارة أو صفيرهم . . .

* * *

ما أظنك أحببتِ أحداً أو شيئاً حبَّكِ الثوب الجديد . هو حب صادر من قلبك ، عائد إليه ، فأنت به قريرة العين ، سعيدة ، ناجية من سيطرة الغير . . .

على لسانى دعاء :

ـ ألا فليذلك الحب يوماً . . .

ولكن قلبى يهمس :

ـ خيّب الله مناك . . .

* * *

ماذا تظنين ؟ أحسبت يوم اختفائك أنى سآوى إلى عشنا

فأمكث أترقب ميعادك ، فإذا مضى تشاغلت بكتاب أقرأه ولا أفهم منه شيئاً ، ونظرت إلى الساعة مرة وتثاءبت أخرى . حتى إذا ما انتبهت إلى مشاغلى التى أهملتها من أجلك ، هبطت الدرج سريعاً ، وانطلقت إلى الدروب والمسالك ، واختلطت بالناس . . . أوَ يدور بخلدك أننى عندئذ أنسى كل شىء ؟ هيهات لخيالك ، مهما سكر وعربد ، أن يدرك ما فعلتُ . . . لبثت أنتظرك ساعة ، ثم ليلة ، ثم يوماً ويومين ، أسبوعاً وأسبوعين ، شهراً وشهوراً . . . وما زلت أنتظرك . وأنا أعلم أنك لن تعودى . ولكنى أخشى — إذا أنا لم انتظرك وشاء القدر أن تعودى أو أن ألقاك فى الطريق — أخشى حينئذ أن تكون لهفتى على رؤيتك قد طواها النسيان وأطفأ أوارها . ولست أريد إلا أن أقابلك مشبوب العاطفة ، واله القلب ، ظامئ العين . فأنت لو تعلمين عزيزة علىّ ، وهيهات لى أن أبتذل قدرك عندى ... فلأتحمل الألم طول الدهر خوفاً من إساءتك فى لحظة عابرة قد تأتى وقد لا تأتى . . .

* * *

اشتريت لها الحذاء فلبسته بعض اليوم ثم خلعته :

ـ حذّرنى الطبيب من الكعوب العالية .

وألقته عنها ميّتاً فى عنفوان الصبا . منعنى كرهى لهذا الحذاء السخيف الذى همّ بأذاها ، من أن آسف على موته السريع . . .

* * *

أيتها الفتاة الغريرة ! كيف لم يقو مكرك على ستر سذاجتك الكامنة فى نظرتك . أأنتِ ساذجة قد تعلمت المكر ، أم ماكرة قد تعلمت السذاجة؟ اكذبى ما شئت وامكرى ، فليس أحب إلى قلبى من كذبك ومكرك . . .

* * *

هذا الأثاث اشتريته على عجل من أجل عشنا . ما نقبت ولا اخترت . ظل طول رفقتنا أنانيّاً أبكم . لم تحيه نظرة فاحصة من عينيك . ما سمعتك راضية عنه أو ساخطة عليه . وكنت إذا انتظرتك وفات ـ كالعادة ـ ميعادك ، أتطلع إلى قطعه واحدة واحدة ، فما حنّت يوماً وأسعفت تساؤلى بجواب . حتى إذا أشرقت شمسك ، تلاشى كالظلام من حياتى .

ولكن ها قد حلّ يومك ـ ككل ظالم ـ أيها الأنانى الأبكم . الآن بعد اختفائها نطقت ، بل ما عدت تطيق

السكوت . لا ينقطع تساؤلك : « أين هى ؟ » « متى تعود ؟»
يكاد ينشق خشبك عيوناً جائعة تتلهف على نبسة من شفتىّ ،
وتكاد تتمزق منك أذرع تتشبث بى وتستجدينى الجواب .

أيها الثرثار ! لجّ فى الكلام ما شئت . فأنا اليوم — ولم
العجب ؟ — كما كنت أنت بالأمس — أبكم ! ولكن لا عليك
أيها الوفى الأمين . أيحلّ لجريح أن يعبث بجريح ؟ ليس من
رباط بين القلوب أقوى من العاهة المشتركة . أنا أيضاً أيها
الرفيق الكريم لا أدرى أين هى ولا متى تعود ! فضم بلواك إلى
بلواى لعلها بهذا عليك تهون . . .

أيها الرفيق اللقيط ! لأنت عندى الآن أعز من أطهر
الأبناء .

* * *

أيتها الفتاة الغريرة . . . لم يكن لى أمل فيك ، ولا بنيت
من حبك أكواخاً ولا قصوراً . لا يركن إلى الأمل إلا من قصّر
يومه ، فاختلس من غده .

أما أنا فقد كان حاضرى يفيض بى ويفيض عنى .
كان ! فكل ذلك قد ولى وفات . وكأن الذى أغدق على

بالأمس – غير مسئول – يتقاضانى اليوم ثمن الإسراف بالحرمان.

وكم من محروم مظلوم ! ..

* * *

بعد أيام قلائل من لقائنا كنت قد قصصت عليك ماضىّ، وكل حادثة ساقتنى إليك . أما أنت فقد مر الحول وبعض الحول ولست أدرى عنك شيئاً . ما هممت بسؤالك ، ولا شكا قلبى من ظمأ . فليس الغموض الذى يحوطك إلا انبهار العين من نورك الوهاج . وهل لك ماض ؟ إنك لست بنت الحوادث ، بل أنت أم الحياة ! . . .

* * *

خاللتك عاماً وبعض عام ، فما سمعتك تنطقين بفكرة أو تبدين رأياً . . . ما تلوثت شفتاك بالحكمة ، ولا نضح لسانك بالفلسفة ... ما دلست الحوادث عليك معانى موهومة مزيّفة ليهتز لها رأسك استعباراً . . . ما سمعتك تذكرين ولا تأملين . لا ماضى لك ولا مستقبل ، بل كنت فى كل لحظة كمال الحياة لتلك اللحظة . تنفجر منك الحياة كمنابع الأنهار ، لا يهمها أتبدد النهر أم اغتاله مستنقع . أتبخر هباء أم سار لغايته إلى البحر

البعيد . تثب الحياة الغضة من عينيك . تسيل على صدرك . تتدفق من على جسدك وأنت لا تشعرين . وكنت أنهل من معينها الصافى فأجد فيه نشوة لم أجدها من عتيق الخمور ... وأنت — لشقائى — لا تشعرين . فليس أكبر الألم أن لا يشعر الحبيب بألمك ، بل أن لا يشعر بسعادتك . . .

* * *

ما من مرة احتضنتك بين ذراعى إلا شعرت بقسوة الموت وظلمه . هذا الجسد الغض المتألق ، تتفجر منه الحياة ، يصبح يوماً ما أبخرة عفنة وعظاماً نخرة . . .

* * *

ألبستها العاملة أمام المرآة كل ما لديها من معاطف ، واحداً بعد واحد ، فإذا بجمالها يطغى على التغيير والتبديل ، تبدو لها فى كل معطف فتنة جديدة . . .

وددت لو استطعت أن أشتريها لك جميعاً . . .

عادت إلى المعطف الأزرق ، وجربته مرة أخرى ، ودار جسدها أمام المرآة . وجهها ساكن ، ونظراتها ثابتة على توأمتها . . . « رفقاً بجيدك يا فتاتى ! » ثم خلعته ، وعادت إلى بقية المعاطف

فلبستها كلها واحداً بعد واحد ، ثم أشارت إلى المعطف الأزرق وقالت متراخية :

ــ هذا !

وهكذا تشاء الصدف أن لا يتعلق ذوقك إلا بأغلاها !

ــ تريثي ! إذا لم يعجبك هذا المعطف فغيره كثير . تعالْ أريك متاجر أخرى .

لمسته بطرف إصبعها وقالت :

ــ أقضي به هذا الموسم ، وفي العام القادم أشتري غيره . . .

كم وددت لو أنك قلت : « تشتري لي أنت غيره ... »

دعوت الله أن يقسم لي شراءه ، كما يدعو السقيم ربه أن يمن عليه بالشفاء . . .

* * *

كنت معك في أحضان الرذيلة من أتقى الناس ، لا تذوق شفتاي الخمر ، وما بيني وبين الله عامر . . .

أما الآن ، بعد اختفائك ، فقد سكنت إلى الخمر ، لا لأنساك ، بل لأقوى على جر الماضي إلى الحاضر . لأعيش معك من جديد . فأنا اليوم سكير صالح مطرود من رحمة الله ...

* * *

لقيتك ذات يوم ، على غير ميعاد ، فى منعطف طريق . أغلب الظن أنك تسكنين قريباً منه ، وأنك خرجت عجلى لأمر . كنت عاطلة من الزينة ، غير مسرحة الشعر ، مهملة الملابس . على كتفيك معطف لعله معطف أخيك ، وفى يدك حقيبة لعلها حقيبة خالتك . كنت لا تشعرين بنظراتى تعانقك من بعيد ،وأنا واقف أتردد بين لذة اللقاء وراحة التشفى ... هذه التى أسرتنى مضاعة بين الناس لا يشعر بها أحد . . ملكة نزعت عن عرشها ! هذا هو الطير المحلق يهبط على الأرض . أين جمال جناحيه وهو صافٌّ فى السماء ، من مهزلة اضطرابه وهو يحجل ويقفز ؟ !

ولما ذهبت إلى عشنا ، كنت أهدأ نفساً . حسبتنى أشد قوة على التخلص من سيطرتك ، ولكنك ما كدت تجتازين الباب حتى هتف قلبى : « هى والله »؟ !

كونى ما شئت ، ليمسخ الإهمال صورتك ، ليقسُ الضنا على محياك ، بل فليشوهك الزمن الذى لا يرحم ، فأنت أنت عندى . لأنت آخر علمى وذوقى ومنتهى تجربتى . لقد كملت

بك حياتى وتم وجودى ، ولن أزيد بعدك شيئاً . حتى خيانتك لم يزدد بها علمى . هى تجربة أصبحت بعدها أكثر فهماً لألم الخلق ، وأشد سخرية من ألم الخلق . فهذا العطف الذى أبذله باليمين ، تسترده سخريتى باليسار . . .

* * *

ولكن صبراً ! سيأتى اليوم الذى أنساك فيه . . . حين يشيب شعرى وتتساقط أسنانى ، وتنطفئ عيونى . حين يحتضننى الفراش فلا أقوى على التخلص من ضمته ، وأستسلم إليه مضطراً وأستريح . حين أفلح أخيراً فى جر رجلى جراً لأبحث عن الشمس ، محدقاً فى الناس ، وهم حولى ، تحديق المشنوق فى جلاديه . حين لا أستطيع أن أرى شيئاً ، إذ يكون شبح الموت واقفاً أمامى ، أعد أنفاسه قبل أن يعد هو أنفاسى . . .

عندئذ سأنساك ! فليس أقوى من ذكراك عندى سوى الموت . . .

ولكن ، ألا من يخبرنى عندئذ كيف أمسيت ؟ وكيف مرّت عليك السنون ؟ . . .

* * *

هذه المخلوقات المنتشرة فى الطريق ، هاربة من الدور تارة ، هاربة إليها مرة أخرى . . .

هذه الحثالة المتوسدة أرصفة المسالك . . .

هؤلاء الباعة الجوالون فى الزحام، بعيدين بأنفسهم عن الزحام كالأرواح الضالة . . .

كلهم ينطق بالقدم والدوام . ما حلول جيل منهم محل جيل إلا كالثعبان يبدل جلداً بجلد . . .

هكذا كنت أراهم . .. أما بعدك فهم لدى الآن سياح يهبطون بلداً غريباً . وجوههم بلهاء فى جهلها ، نظرتهم تائهة لا تستقر ، ولا تقوى أرواحهم المهاجرة أن تقول عن شىء : « هذا لى ! »

كل هذا لأنهم لم يسعدوا يا حبيبتى برؤياك . . .

* * *

عندما كنت أخرج معك فى هدأة الليل ، كنت أشعر أننا وحدنا فى هذا العالم! تناسينا الأفلاك والنجوم ، نسينا الليل، نسينا الناس .

وكان فى نسيانها أكبر اللذة والسعادة .

أما اليوم . بعد اختفائك ، فأسير والأفلاك والنجوم لم تتغير ، والليل مغمض الطرف ، والناس هم هم . . .

فأجد فى نسيانها أكبر الألم والعذاب . . .

* * *

ألف ألف فتاة مثلك عاشت ، فلمعت عيناها لمعان عينيك ، وافترت شفتاها عن مثل بارق ثغرك ، ثم طواهن الموت واندثرن فى التراب . قبلة واحدة منك لى كانت تكفى لبعث هؤلاء الموتى الجائعات للحب بعد طول الرقاد . . . فى قبلتك لهيب ألف ألف ثغر ظامئ . . . أصبحت من أجلك أحب الموتى مثل حبى للأحياء . . .

* * *

وأغرب ما أعجب له أننى لا أسأل عن سبب اختفائك . وهل يستطيع من عاش معك معدوم المنطق ، أن يعود فيتفهم العلل والأسباب ؟ سأسأل عن السبب حينما يهدأ قلبى . . . إذاً فلن أسأل ما حييت . وإذا مات العالم معتزاً بعلمه — فسأموت أنا معتزاً بجهلى . . .

* * *

قرأت بحثاً كتبه شيخ من شيوخ الدين يعتمد فيه على المنطق العقلي، ليثبت أن الإنسان مسيّر لا مخير ... فما اقتنعت وما فهمت أوله من آخره . . .

وتجيئين أنت ، أيتها الفتاة الغريرة ، فتكفيني نظرة واحدة من عينيك لأومن بالقدر وبالجبر . . . لأنني ألغيت معك منطقي وعقلي . وقنعت بالروح فآمنت .

* * *

لجأت إلى الكتب المقدسة الطاهرة أستنبئها : أيجيب الرحمن دعوة العاصي ؟ فإني أريد إذا ما وقفت بين يدي الديّان أن أسأله ، قبل أن يغفر لي ذنوبي ، أن يغفر لك ذنبك . . .

* * *

العالم مضطرب ، والمدافع تقصف ، والدماء تسيل . الدور تخربت ، والنساء ترملت ، والأرض أمنا العجوز في اللهيب ... فماذا يكون شقائي باختفائك مع كل هذه الآلام ؟ أأصرخ ليخرب العالم ما دمت أنا غير سعيد؟ لا ، وألف مرة لا ، بل أدعو الله أن يعيد السلام حتى تنعمي يا حبيبتي أني كنت بشبابك في ظلاله ، وإن حرمني هذا السلام لذتي الأخيرة .. . لذة التشفي !

فى المساء أقول : الفرار الفرار يا نفس . عبثا حاولت الاستقرار والاطمئنان للخلوّ والعدم . من يلومك بعد أن ذقت معها طعم الوجود؟عودى . ارجعى أيتها النفس الفطيم إلى ظلامك وأوهامك ، فلست والله تدرين بعد اليوم ،إذ تطوف بلك أشباح السعادة : أهى ذكريات الماضى أم آمال المستقبل ؟

وفى الصباح أنتفض على بسمة الفجر ونشوة الطير — أسمعها تقول : « أنت يا هذا الذى سعدت بالحب . قم ! إنما العيد لك ! » مهلا أيها الطير ! إنك تعيش ملء لحظتك للحظتك ، بيد أن نفسى تتوقع عند الصباح قدوم المساء . . .

* * *

ودعت القاهرة عهد السلام ،فأطفأت أنوارها ، وفاضت كالقدح أترعته يد مرتعشة لسكير زائغ البصر . . . واكتظت طرقاتها بأغراب ومهاجرين ونازحين من ملل ونحل شتى ، لم يبق موضع لقدم فى ترام ،أو فى سيارة ،أو فى ملهى . رأيت الكثيرين فى هذا الزحام كالأسرى ،على وجوههم علامات التأفف والكرب والاختناق ،يودون الخلاص .فلا شيء يضيق به الإنسان ضيقه بقرب أخيه الإنسان . . . أما أنت فكنتِ فى الزحام كالسمكة

فى الماء، تطبق عليك الجموع ، ثم تنكشف وتطبق ، وأنت ناعمة البال قريرة العين ، بل كنت أجمل ما تكونين وأنت رافعة الرأس فى الزحام ، تتلاطم أمواج البشر حول منارتك . ما سمعتك تشكين أو تتأففين . . . ما زاد تلفتك ولا ضجرت نظرتك ؛ بل كنت مرحة كأنك فى مهرجان ... وكما رأيتك سعيدة بالحياة رأيت الحياة سعيدة بك . . .

* * *

يوم أن خرجنا من متجر الأزياء قبيل الغروب وأنت تقولين :

ــ . . . أعجبنى الثوب لولا أزراره . . .

ودوت صفارة الإنذار ، وهاج الخلق وماج . هل تذكرين كيف رأينا لابسى الجلابيب والحفاة هازئين ، والموسرين هاربين؟ رأينا شباباً فى شرخ الصبا غير عابئين ، وشيوخاً على حافة القبر زايلهم كساحهم فهم يجرون إلى المخابئ نشطين . . .

وقفت مكانك وتلفت يمنة ويسرة ، ثم قلت :

ــ أنا خائفة !

أخذتك إلى أول بناء لقيناه ، وجلسنا مع بوابه النوبى كأن ثلاثتنا من أسرة واحدة لم تفترق طول الحياة . . .

ولما ضجت السماء بأزيز الطائرات ، واشتعلت بلهيب المدافع وانفجار القنابل ... ولما اهتزت النوافذ والأبواب ، وعلا الصراخ . امتقع لونك ، وعرقت يدك ، وطال صمتك . . .

ثم هتفت الصفارة بالأمان ، فقمت واقفة ، ووضعت ذراعك فى ذراعى وخرجنا ، وكان أول حديثك :

— . . . لأن طرف الزرّ الأوسط على الكم اليمين شبه مخدوش . . .

* * *

تنقلت بعدك بين نساء كثيرات . لم أزد مع كل منهن عن لقاء واحد ، وفيهن من هى أجمل منك وأشد سحراً ، ثم أفر ولا أعود . لماذا ؟ أللحسرة ؟ لا . فأنا أعلم أن اختفاءك قد أذابك فى يمّ الحياة ، وهيهات أن تعودى ، ولو عدتِ لعدت غير ما كنت . . . أللغيرة ؟ هل تخشى روحى أن تكون كل امرأة جديدة بين ذراعى رجلاً جديداً أنت إذ ذاك بين ذراعيه ؟ قد يكون هذا ، ولكن هل لى أن أصارحك؟ أننى أفر ضنًّا بنفسى على غيرك ؟ فهذا الذى تحسبينه فىّ انمحاء هو غاية الكبرياء والاعتزاز . . . هو الحب !

* * *

أحببت قبلك اثنتين : واحدة ثم أخرى. كم أقسمت صادقاً بين أيديهما أحرّ الأيمان على الوفاء والإخلاص حتى الموت . . . ثم افترقنا . . . وهدأتُ . . . ولم أعد أذكر شيئاً . . . غير أنى كنت فى غيبوبة النشوة أنادى الأولى بين ذراعى الثانية . وكم فاجأتُ شفتى تتمتمان باسم دفين وأنت بين ذراعى لا تشعرين .. فهل الذى جرى عليهما سيجرى عليك أنت أيضاً ؟ إن الزمن يلح على بالخلاص فأعصيه ، والمنطق يسخر منى فأسخر منه ، والحياة تتشبث بتلابيبى فأتملص من قبضتها وأفر . ولكن هل أقوى على مغالبة كل هؤلاء الخصوم مجتمعين ؟ سأنساك ! سأنساك ! ولكن هيهات لى أن أنسى أننى نسيتك . . .

* * *

الآن بعد اختفائك ، أقول وأنا وَجل : هل أحببتها لأنها ذكرتنى بمن مضى ؟ أفى نظرتك أم فى صوتك أم فى سذاجتك لقيت من خلت أننى دفنته ؟ ولكن لا ! ما فات مات . مات إلى الأبد . ولِمَ نخدع أنفسنا ؟ الذكرى إنما تجر من القبر هيكلا نخراً بالياً فى لون أغبر وكفن حائل ، أجوفَ قد نزع منه الكلام.

نومئ فلا يفهم، ونشير فلا يفطن . عدم متحجر ، قائم ونحن نضطرب وندور ، فلا نعرف إقباله من إدباره . إن بصيصاً من نور خافت ينبعث من حيّ ، كاسف جميع الشموس الغاربة ! الآن أومن أنى أحببت من سبقك، لأنهما كانتا تشبهانك أنت . . .

* * *

يا رب ! يا أرحم الراحمين ، وسعت رحمتك حنق المهزومين ، وثورة المحرومين وقد تاهوا فى ملكوتك . ما أجهلهم وإن كانوا مؤمنين !

وسعت رحمتك من أضلته بصيرته ، فجحد ، وأنكر ، وكفر كفر الأعمى بالنور . . .

وسعت رحمتك من ركبه الجهل ، وساقته الحماقة فتعالى وأبى السجود ، آنفاً من أن يرسف فيما توهم من قيود .

بل وسعت رحمتك من أغدقت عليه من نعمائك ، فجدف وتمرد . . .

لا أقول بمثل قولهم : لماذا خلقت الشر ؟ لماذا برأت الرذيلة ؟ ولكنى أسألك يا إلهى : لماذا جعلت الحق على النفس ثقيلا ، والباطل هيناً ؟ لماذا خلقت الفضيلة مملة والرذيلة فاتنة ؟

لماذا خلقت الحب روحاً هائمة لا تخضع لعرف أو لقانون : طيراً لا يحط إلا ليحوم ؟ يفزّعه الأمن والسلم والدوام ، والحياة عنده وجد وولِه وهيام ؟

لا يستقر ولا يهدأ ، لا تزيده العبرة إلا استهتاراً ، ولا النصيحة إلا عناداً . . . لم جعلت السعادة سراباً ، والوفاء محالا ، والنيات مقعدة ، والنسيان عدّاءً !

أنت مطلع على الضمائر والقلوب ، فاعف اللهم عمن تثاقلت قدماه فى الطريق السوى، فلم يقو على اللحاق بالقافلة تتفصّد عرقاً وملالاً . . . وانحرف إلى البيداء ضالاً يناجي النجوم، وكل زاده نجواه لنفسه :

— ما ظنّك بالله العلى القدير ، الرؤوف الكريم !

* * *

أجوس بعدك خلال القاهرة، فأعود من أحيائها الأوربية بقلب فاتر كليل ، وطعم بين المر والحلو ، كفقير يرتد عن زيارة ابنه الغنى العاقّ، وإن عز على قلب أبيه . . . يضيع منى شبحك فى الأوبرا وجروبى ، وبين شبرد والكونتننتال ، فإذا قادتنى قدماى إلى سيدنا الحسين ، ومررت تحت البوابات الهرمة ،

ووقفت أمام الجوامع العتيقة ، هصر الشوق قلبي هصراً . . .
فأنت عندى هذا التاريخ . . . .

وإذا مافاض بي الحنين إليك أبكر إلى قصر النيل مترقباً جموع الفلاحات قادمات من الريف ، على رءوسهن سلل الخضر ، ثيابهن سود ، على أرجلهن الطين ، معتدلات القوام ، في وجوههن المجهدة عيون صابرة . لا ينقطع تدافعهن ، ولا ثرثرتهن . . . عندئذ ألقاك . . . فأنت عندى هذا الوطن . . .

ويغلبني الوله على أمرى يوم « طلوع القرافة » ، حين أتتبع بنظرى عربات الفلاحين البطيئة تحمل الأسرة كلها رجالا ونساء ، شيوخاً وأطفالا ، أمامهم « السحارة » المنحدرة من قبور الفراعنة ، يهجرون مدينة الأحياء ليستقبلوا العيد فى مدينة الأموات .

فأنت عندى هذا العيد ! . . .

* * *

الآن أذكر ، والآن فهمت . . . .

فى صباح اليوم الذى اختفيت فيه ، كنت أجول فى خان الخليلى ، فنادتني من سجنها الزجاجى مسبحة جميلة وأشارت

إلىّ أنْ خذنى معك .

تناولتها بودّ ، وانعقدت بيننا منذ اللمسة الأولى أواصر صادقة وثقت أنها ستدوم . تساقط حباتها كقطرات الماء على الغدير . حديثها الخافت إلىّ : عن الألفة بين القلوب فى عالم الوحدة ، عن الطمأنينة فى اللقاء المقسوم وإن طال الغياب ، عن الوجل من الفراق المحتوم رغم اللقاء . . .

عدت بها إلى عشنا ، فلم أكد أدخله حتى انقطع من حيث لا أدرى خيطها وتناثرت حباتها . أهو نذير أم شيطان يغار ؟ جثوت على الأرض ، وجمعت حباتها ، وعددتها فإذا هى تنقص حبة . دسست يدى ، ونبشت بأظافرى تحت المقاعد والسجاد ، ولكنْ عبثاً ! فحزنت وأسفت .

قد تسألين : أكلّ هذا العناء من أجل حبة واحدة صغيرة ، وفى يدك منها عشرات ؟

فأجيبك : هكذا مسبحتى ! لا يحيا جمالها إلا بهذه الحبة الواحدة الصغيرة . . . التائهة . !


Bibliotheca Alexandrina
0522961